بدر أحمد
أمطار سوداء
رواية

أمطار سوداء

دار الوطن
للصحافة والطباعة والنشر

بدر أحمد

أمطار سوداء

رواية

دار الوطن
للصحافة والطباعة والنشر

الكتاب :
الكاتب :
الصنف :
الناشر : دار الوطن للصحافة والطباعة والنشر
رقم الإيداع القانوني:
الترقيم الدولي: (ردمك)
الطبعة الأولى: 2012
الخدمات الفنية والطباعة:

دار الوطن
للصحافة والطباعة والنشر

7، زنقة الكوفة رقم 1 الرباط حسان 10020 المغرب
تلفونات:
مكتب : 54 24 72 537 212+
جوال : 56 02 42 673 212+
البريد الإلكتروني:
daralwatan**2012**@gmail.com
daralwatan**2018**@gmail.com
الموقع الإلكتروني:
www.daralwatan.com

إهداء

Baita Terrouzi

إليك أهدى هذا العمل المتواضع
مع وافر احترامي وتقديري

Badr Ahmed

تقديم

رواية " أمطار سوداء "
للروائي بدر أحمد - الجمهورية اليمنية -
أو سيل الكراهية الجارف

حميد ركاطة (+)

تعرض رواية أمطار سوداء للروائي اليمني " بدر أحمد " ، أحداثا مؤلمة جدا في وطن " قلمت الذئاب والكلاب مخالبها ، وأنيابها ، لتطوى عصور من أحاجي الافتراس ...لتقف مذعورة تشاهد افترس الانسان لأخيه الانسان " .

بهذه العبارة من التقديم الذي صدر به الكاتب روايته ، نسافر مع بطله في رحلة محفوفة بالعديد من الأخطار نحو بقاع قصية من الوطن الساكن فى وجداننا ، حيث أجهزت الحروب الأهلية ، والنزاعات المسلحة (بين الفصائل المتطاحنة من الثوار ، وبينهم وبين الجيش النظامي) على كل مقومات الحياة الكريمة .

تبرز الرواية كيف أن منطق الحرب ، وفلسفتها لا تحمل سوى الموت والقسوة ، والعنف والدمار ، ومصادرة الحقوق الانسانية ، لتنشر سيلا من الكراهية التي تجتاح بسوادها كل ملامح الجمال .

هكذا عزيزتي القارئة ، عزيزي القارئ ،

ستلمس أن الهروب من الجحيم ، لم يكن سهلا في مدينة استبد بها الخراب ، وعشعش الموت في جنباتها ..وقد أفرز ذلك سرديا العديد من الاشكالات الفلسفية ، والتداعيات الحرة ، ومواقف الأبطال من الواقع ومن الحياة ، ومن الموت والحرية ، والوطن . في ظل هذه اللحظات المريرة .ستتحدد كمفاهيم ستتحول ضمن خانة الحرب الطاحنة إلى انتقالات فوق رقعة شطرنج بيادقها عمياء ومسلوبة الارادة .، حيث ستبرز لك مسارات متعددة ستكشف عن خيوط لعبة قذرة عملت على تكريس الاقصاء لكل الطاقات الحية والعقول المستنيرة والكفاءات الفذة التي كان بإمكانها المساهمة في تقدم الوطن ، وتحريره من الجهل لصالح أقلية من الزعماء ، والشخصيات النافذة ، وضباط الحرب ، وتجارها .وهو ما ابرز

أوجههم القبيحة التي ألبسوها أقنعة القداسة بتحويلهم الثورة إلى " حصان طروادة " جديد بعد أن أفرغوها من معناها ، وحادوا بها عن مسارها ، ومقاصدها . وهو نفس الحكم الذي يمكن إسقاطه على العديد من الفصائل والتيارات، التي ساهمت بنزاعاتها المفتعلة ، في زيغ مبادئ الثورة عن مسارها ، وأهدافها، وعملت على استهلاك قيم البلاد ، وموروثاتها الأخلاقية .

لقد أبرز وصول البطل إلى مدينة (نفوسة) نوعا من الحسرة نظرا لما شاهده من فوضى ، وحصار ، ودمار . ما منحه الاحساس بكونه أخطأ الطريق ، والاختيار بإتباعه لرجل لا يعرفه ، وهو ما دل على إجهاض حلم شعب بأكمله . هذا الاحساس سنلمس ترجمته على أكثر من لسان داخل الرواية في اقتناع الأبطال في النهاية ، أن الاختيار الثوري الجديد هو اختيار سيعرضهم للموت ، وهم فقط ينتظرون لحظاته في كل حين . فتطهير الثورة ذاتها وتخليص التنظيم من العصابات المسلحة ، هو في النهاية بمثابة لغم ، سيعمل على نشر طوفان من التخريب والدمار .

إبهام الزمان والمكان جعل الرواية تتجاوز ما هو محلي في طرحها للأحداث ، لتشمل ما حدث ويحدث إقليميا على خارطة الوطن العربي الكبير، وخلال الإبحار بين سطور هذه الرواية، ستلمس تسجيلاً وحضوراً قوياً للطابع السياسي والرؤية السياسية للحدث ، إلا أن الطابع الإنساني والبعد الإنساني للرواية هو الغالب والأكثر عمقاً و ابهاراً بين مجريات الأحداث.

رواية أمطار هي رواية مثيرة ، وإضافة نوعية للرواية اليمنية ، والعربية على السواء . في إشارتها إلى جوانب من الحياة القاسية في بعض بلدان الربيع العربي ، في ظل الصراعات والاغتيالات ، والتفاوت الطبقي والاجتماعي ..ومقاومة الانسان من أجل البقاء في مواجهة حرب إبادة للقيم ، والروح الإنسانية ، وفي تعريتها عن الوجه القبيح للنظام الفاسد ، عندما اتمعن فيما يجرى على الساحة العربية حاليا اجد نفسي مجبرا بأن اعدها (الرواية) ضرباً متقدماً واستثنائياً من ضروب الكهانة وفق خلالها الكاتب في قراءة ما حدث وبالتالي التكهن بما سيحدث .

(+) ناقد من المغرب

في وطن اختارت فيه الشمس أن تغرب مرتين وان تشيع بنورها نحو عوالم أخرى أصبحت أكثر أماناً وأكثر حاجة للضوء .

هنا لم يعد هنالك أي معنى للحياة..... ولم تعد الطيور تغرد على أعتاب الزهر كما كانت منذ عصور..... ارهبها صوت الرصاص... وأرهقها الهروب والخوف فلم يعد لديها وقت لتنصب أعشاشها فقررت الرحيل نحو أرض جديدة ..... وحياة جديدة.

حتى الابتسامات على الوجوه..... أصابها الشحوب..... والأعين غزاها الأرق وطوقتها الهالات السوداء وذوت في أعماقها أمنيات شتى بوطن سالم معافى..... بغبعة نقية لم تدنسها أدخنة الحرائق ولم تخترقها رصاصات مجنونة..... بأطفال يملأون الحي ضجيجاً ولعباً دون أن يداهمهم الخوف فجأة أو تقتنصهم نظرة حقد طائشة!

هنا في وطن ..... ذابت على أهدابه الدموع..... وماتت على جراحه كل الجروح..... وعشش الطاعون في جنباته ..... أصبح الخوف ابتسامة على الوجوه..... والربيع عزفت عن مراقصة السحابات وعن حمل حبات اللقاح لتنفرد بحمل ذرات الرماد من مدن الحرائق إلى مدن الحرائق..... حتى الجداول تركت أمنيات الصغار مكتوبة على قوارب ورقية لتحمل بدلاً عنها الأغصان الميتة وبقايا الأعشاش المهجورة .

هنا في وطن..... انتحرت فيه الحمائم..... وعجزت فيه البلابل عن الغناء ..... غلف السخام كل شيء .....

تنحت الأقلام والمحابر قسرا لتفسح المجال لسكاكين الغدر أن تتربع على كرسي الزمان والمكان .

هنا في وطن..... قلمت الذئاب والكلاب مخالبها وأنيابها لتطوى عصور من أحاجي الافتراس..... لتقف مذعورة تشاهد افتراس الإنسان لأخيه الإنسان .

هنا في وطن بحجم الألم ..... بحجم الحقيقة التي صلبت على جبين الأنا... بحجم الحلم.... بحجم تراجيديا إغريقية لامعقولة الأحداث .

هنا في وطن يحتضن أمي.... أبي.... أبنائي.... وكل من أحببتهم.

مازلت هنا جائباً .....

أنتظر.

الفصل الأول
لـقـاء

في هذه المدينة الحية الميتة التي يمكنك أن ترى الموت قد ترك بصماته واضحة على كل شيء فيها حتى صار من الخارق للعادة أن ترى هذا الكشك الصغير يفتح أبوابه ويشرع في نشر ما تحتويه خزانته من صحف وكتب ودوريات وكروت بريدية جميعها بالتأكيد قديمة ومع ذلك فالجميع هنا يُقبل عليها وتتخاطفها الأيدي لتتصفحها الأعين بشغف من ينتظر خطاباً من عزيز غائب .
يبدو أن إصرارهم الغريب على التصرف بهذه التلقائية المنافية لمحاذير الخطر يخلق لديهم إحساساً لذيذاً بأن الأوضاع على ما يرام أو على الأقل بأنها تتحسن حتى وإن لم تكن كذلك .
ومن الخارق للعادة أيضاً أن تجد هذا الجمع من الناس هنا على الرغم من المخاطر الجمة التي تتربص بكل من يحاول الخروج من منزله فقط فما بالك بالتجمهر أمام كشك وأمام بائع الفول أو أمام باعة يعرضون بضائعهم على الأرصفة و أعينهم تترصد الوجوه وتترصد المجهول الذي قد يحل على المكان في أي لحظة.
ربما وصل هؤلاء الناس إلى قناعة تامة بأن البيت لم يعد مكاناً آمناً كما كان منذ الأزل وكما هو الحال في كل بقعة من بقاع هذا الوطن ،وبأن الخروج لإستنشاق الهواء وربما للنزهة عبر القفز فوق جدران الأسلاك الشائكة والالتفاف على حواجز التفتيش والفرار من أعين المخبرين و الاحتكاك بالخطر أفضل من الجلوس في الغرف المظلمة التي تحولت إلى كهوف حقيقية تتردد فيها أصوات الرصاص و الأنفجارات بين الحين و الآخر ،وربما في أحسن الأحوال يمكن اعتبارها صالات انتظار قاسية يقضي فيها الجميع أوقاتهم في قضم أظافرهم بانتظار شائعة أو أخرى تهب لتداعب أمانيهم بربيع أمنيات جديد يجافي الواقع أو في انتظار قذيفة مجنونة تسقط على غير موعد في عقر دار العائلة .
كُنت أقف أمام كشك لبيع المجلات والصحف التقط هذه و أدع تلك بيد وبالأخرى أحشر أجزاء رغيف خبز تسربت من ثناياه حبات فول مهروسة....
إنه هناك على بعد بضع خطوات مني.....
بجسده المكتنز وجبهته العريضة ولحيته البيضاء الكثة وكذا شعر رأسه الأبيض الفوضوي المظهر.....
بالتأكيد أعرف أن أول صورة ارتسمت في ذهنك هي صورة كارل ماركس....
ولا غرابه في ذلك.... فأنا على يقين بأنك ستنفجر ضاحكاً من تدلى فكي السفلى ومن تلك النظرة الغبية التي إرتسمت على وجهي وأنا أطالع صورة كارل ماركس

لأول مرة في إحدى الدوريات الشهرية وذات الرجل يقف على بُعد خطوات منى أظنه يحدق بي ، ظللت أطالع الصورة غير مصدق وشرعت أقرأ السطور المجاورة للصورة عدة مرات ولكنى لم أجد أية علاقة بين السطور و الصورة، كنت مازلت أنقل بصري بين الصورة وبين وجه العجوز الواقف على بُعد أمتار قليلة مني بجلبابه الأبيض الناصع وملامحه العبثية لا فرق يمكن أن أستخلصه من المقارنة بين الأصل والصورة -أقصد في الملامح.
لم ألمح إمتعاض البائع في الكشك ولم أهتم لتذمر بعض الزبائن من وقوفي وسط المساحة الضيقة دون حراك وبالتأكيد دون أن أشتري شيئاً ولا يبدو أنني سأفعل.
إجمالاً كُنت مثل نحلة أصابها مس من الجنون أنتقل من دوريه إلى أخرى ومن مجله إلى أخرى على غير هدى وعلى غير هدف كُنت - والحق يقال - قد هجرت هذا الصنف من الإطلاع منذ أزمان طويلة لا أدري حقيقة لم؟ ربما هي مشاغل الدنيا وربما هي موجة تغير في الإهتمامات التي تجتاح حياة الأنسان بين كل مرحلة عمرية واخرى.
الشبكة...سلوى....اليقضة.... النهضه....الجرس....كانت فيما مضى عوالم سحرية أُخلق فيها وها أنا ذا الأن أتصفح الوجوه والعناوين العريضة على الصفحات الملونة وكأني فتحت بوابة من بوابات الأنتقال عبر الزمن لأعود عقوداً سحيقة إلى الوراء وفي ذهني يدوي أثير إذاعة مونت كارلو بلكنة شامية،ليعيد إلى ذهني طيفاً واسعاً من الأحلام والأماني الغضة كان الزمن قد طحنها بكلكله، يا له من عالم جميل ذاك الذي إنقضى على الرغم من أنه لم يخلُ من بقع الألم التي شوهت كثيراً صفحات أيامه ،لذا لم أكن أشعر بحلاوته فيما مضى ويشدني الأن الحنين إلي تلك الحقبة لا أدري لم؟ ربما لأن الألالم التي عصفت بي الأن أشد وحشية و إيلاماً من كل الألأم التي مرت بي في الماضي .
و ربما يصل الأنسان لمرحلة في عمره يدرك خلالها أنه ليس في الإمكان أفضل مما كان وبأن دولاب الحياة الدائر لايأتي دوماً ببديل أفضل للوضع الراهن ليغدو الأمر برمته أشبه بعجلة روليت ضخمة يلعب فيها المرء على صحته وحياته ومستقبله وفي كل مرة ينتظر أن تتحسن الأوضاع.
لاحظ العجوز نظراتي الحائرة وأنا أحدق نحوه فالتقط أسفل جلبابه واتجه بخطوات واسعة نحوى وعلى وجهه إبتسامة عريضة كشفت عن أسنان بيضاء ناصعة على نحو يثير الدهشة والانتباه .... مد يده مصافحاً و اليد الأخرى لازالت تمسك

بطرف ثوبه فبدا بساقين نحيلتين طويلتين على عكس ما يوحي مظهره المكتنز فبدا بحق أشبه بطائر الكركي.
إعتصر يدي باسماً وهو يقول :
• يوم جميل أليس كذلك؟!
هززت رأسي إيجاباً وأنا أرسم إبتسامة صفراء ثقيلة على شفتاي ،التقط العجوز بقايارغيف الخبز من يدي وجذبني نحو فسحة جوار الكشك و أجلسني إلى جواره و بدء في حشر رغيف الخبز في فمه بنهم عجيب وأردف قائلاً:
- يبدو أنك لست من هذه المدينة أليس كذلك؟
هززت رأسي إيجاباً وأنا أحدق فيه مستغرباً فتابع قائلاً:
• يبدو عليك هذا، فالبريق الذي في عينيك ووقوفك بهذه الطريقة أمام هذا الكشك يعطي انطباعاً بأنك هبطت بالباراشوت على هذه المدينة،وعلى كُلٍ فحالة الهدوء هذه لن تستمر طويلاً فستهب العاصفة حتماً في أي لحظة .
أنهى العجوز كلماته ثم انفجر العجوز ضاحكاً فأحسست بالإهانة تجتاح كياني، وهممت بقول شيئاً ما أرد به الصاع صاعين لهذا العجوز المتطفل ،إنما إشارة من يده حبست الكلمات في حلقي ،ليتابع العجوز حديثة قائلاً:
• يبدو أن كلماتي أزعجتك ،أعتذر لم أقصد الإساءة.. صدقني خذ الأمور ببساطة... عش حياتك ببساطة لماذا التعقيد؟....الحياة في حد ذاتها وقت يمضى بك ،ريح تحملك كريشة مسلوبة الإرادة ، فأنت لا تملك أن تحدد مصيرك أو حتى وجهتك .
ظللت أراقبه وهو يلعق أصابعه ويلتقط حبات الفول التي تساقطت على جلبابه وقلت بنفاذ صبر واضح :
• صحيح ما تقوله نظرياً لكن عملياً لا أعتقد أن البساطة يمكن أن تحل كل مشاكلك .
بسط العجوز كفيه نحوى وعلى وجهه إبتسامة عريضة قائلاً:
• القناعة كنز لا يفنى يابنى .
بدأت أشعر بالضجر من حديثه فبادرته ساخراً:
• عن أي قناعة تتحدث يا رجل ؟ هناك أشياء لا يمكن للقناعة أن تقضي على شعورك بالحاجة إليها.
أشار العجوز بأصبعه نحو وجهي قائلاً بخبث:

• تماماً كالحرية.
أجبته بدهشة :
• نعم .
ذوت ملامح العجوز فجأة وهو يحدق في نقطة ما على الجهة المقابلة من الميدان ، نقلت بصري إلى حيث يحدق فلم أجد سوى جمع من السيارات العسكرية والمدنية توقفت أمام مبنى البنك الأهلي ترجل منها جمع من الجنود وهم يحدثون جلبة عالية فقال العجوز بلهجة منكسرة:
• كل شيء جميل في هذا البلد صادره الخوف وحلت أبجديات الشر محل كل ما تعلمناه وعلمناه من قيم وسلوكيات نبيلة،أشعر بسيل جارف من الكراهية والحقد يجتاح كل شيء وأصبح السواد يغلف كل شيء وإن لم تستطع أن تراه فعلياً الإ أنك ستحسه في كل شيء حولك ...في الأرض ...في السماء....على بتلات الزهر وحتى ممتزجاً بقطرات المطر لم يعد كل شيء كما كان ولا يبدو أنه سيعود كما كان.
لم يكد ينهي كلماته حتى دوى صوت إنفجار عنيف قذف بنا أرضاً و تساقطت على إثره قطع الحديد والحجارة حولنا بشكل كثيف فيما غلفت المكان سحابة من الدخان والغبار رفعت رأسي ببطء لأشاهد عشرات الجثث ملقاه على الأرض وقد تعالت صيحات الاستغاثة الممزوجة بصرخات الأنين من بعض الأجساد الملقاة على الأرض و راحت كتلة كبيرة من النيران تلتهم مبنى البنك الأهلي والسيارات المتوقفة أمامه ، لم أكد أستوعب ماجرى حتى بدأ صوت إطلاق نار كثيف يتعالى في المكان على نحو مريع إمتزج بصوت صفارات إنذار قادمة من بعيد، لا أدرى حقيقة ماهيتها؟ هل هي أصوات سيارات إسعاف؟ أم سيارات الإطفاء ؟أم أنها تعزيزات عسكرية تصل إلى هذه المنطقة ؟ إنما مأأيقنت به أن أبواب الجحيم قد فُتحت على مصرعيها وبأن لحظة الفوضى العارمة قد حانت .
كان الضجيج يملاء المكان ،لا ادري أي شعور اعتراني تلك اللحظة ، بل استطيع القول انني وقعت على حين غرة فى منطقة اللاشعور ، بذهول عظيم صرت احدق فيما حولى على غير انطباع ،وكأني انتقلت الى احد استديوهات هيوليود لأقف في قلب مشهد سينمائي عنيف مملوء بالقتل والدمار بكل ما تحمله الكلمة من معنى .

وفيما كان الدوار يطوق رأسي والطنين يتعالى فى اذناي التصقت عيناي وعلى غير موعد برجل يجلس على الأرض مستندا إلى احد جدران أحواض الزهور وقد غرقت ثيابه بحمرة الدم القاني ،وجدت نفسي ازحف بين الحطام نحوه وعيناي مازالتا مسمرتان عليه فقد بدا بجسده النحيل ونظارته الطبية وبتقاسيم وجه حادة ومتعبه مألوفاً للغاية، تذكرت لحظتها بأنه كان يقف الى جواري امام ذلك الكشك ، كان ينفث الدماء من فمه وانفه بشكل كثيف يجعلك تدرك يقيناً بأن حالته اشد من أن تكون سيئة وحسب .

لحق بي العجوز وهو يقول باستغراب :

• أي جنون ألم بك يا هذا ؟إلى أين تذهب ؟

نقل العجوز بصره نحو الرجل فسادت لحظات من الصمت قطعها العجوز قائلاً بقلق :

• هل تعرفه ؟

تجاهلت سؤاله و انا اقترب اكثر من الرجل الذي افلت يده الممسكة بعنقه فاندفعت نافورة من الدماء من وريده العنقي تحاكي في اندفاعها نبضات قلبه العصبية .

اقترب العجوز منا وهو يقول :

• يبدو ان اصابته خطرة ، يحتاج الى تدخل جراحى عاجِل .

انهى العجوز كلماته وهو يجول ببصره فى الانحاء قائلاً بنبرة لم تخلو من حيرة واضحة :

• يا ترى مالذي يمكن ان نقدمه لهذا المسكين ؟

لمحت اصابة اخرى عميقة في الجهة اليسري من بطنه كشفت عن جزء من احشائه وقد تجمعت حولها فقاعات من الدم، سرت قشعريرة باردة في جسدى وانا اقول بتوتر واضح :

• بالفعل اصابته خطرة ، هيا لننقله الى مكان اكثر امنا من هنا ولنرى ما الذي سنقدمه له .

هز العجوز رأسه على غير معنى وهو يتابع لهاث الرجل الذي راحت وتيرته تتعالى وقال :

• لا شيء لايمكن ان نقدم له شيئاً الان ، في ظل هذه الاصابات اعتقد ان تحريكه من

مكانه مخاطرة كبيره بحياته من الافضل ان يبقى في مكانه حتى وصول طواقم الاسعاف .

بدء الرجل يصرخ بذعر ممزوج بألم ومن خلف زجاج نظارته الذي تلطخ بقطرات الدم رأيت عينيه وهما تجحضان برعب، وبقبضة نحيله متشنجة وغارقة بالدماء امسك بساعدى وبيده الاخرى مازال قابضاً بقوة على وريده العنقي ، راح يستجمع انفاسه ليبدوا وكأنه يريد ان يقول شيئاً لكن كلماته خذلته واختارت ان تذوى في حلقه لتتحول الى فقاعات من الدم تغادر فمه وانفه، فقال العجوز بصوت عال حاول ان يتغلب به على صوت الضجيج الذي يلف المكان :

• هيا بنا لا نستطيع ان نقدم له شيئاً ومكوثنا في هذا المكان فيه مخاطرة كبيرة يجب ان نغادر فوراً ولندع امره بين يدى خالقه .

على وقع هذه الكلمات افلت الرجل قبضته الممسكة بساعدي وهو ينفث الدماء من فمه بإيقاع يائس يحاكي ايقاع البكاء ، ضرب العجوز على ظهري بكفه وهو يقول على وقع إطلاق نار كثيف :

• هيا يابني لنغادر .

انهى عبارته وهو يستدير زاحفاً على كفيه وركبتيه وكالمسحور وجدت نفسي اتبعه زاحفاً قاطعاً بضع خطوات ومن ثم توقفت لالتفت إلى الخلف نحو الرجل الذي ظل يلاحقنا بنظراته وقد فرش الى جواره ذراعيه باستسلام مرير تاركاً نافورة الدماء تندفع من وريده العنقي لتصبغ بحمرة الدم جريدة وكتاباً كانا إلى جواره وكيساً مملوءاً بالخبز ، لن أنسى ما حييت تلك النظرة اليائسة وتلك الملامح التي تقف على أعتاب الموت ، كما لن أنسى أولئك الذين سيطول انتظارهم لأرغفة الخبز التي ارتوت على ما يبدو من الدم .

أمسك العجوز بيدي وجذبني ورحنا نركض بكل ما أوتينا من قوة و الرصاص يتطاير حولنا وتحت أقدامنا بكثافة وبإصرار عجيب ليخترق الأجساد من حولنا ويصطدم على الجدران وواجهات المحلات وبعض السيارات المتوقفة والأخرى الفارة من هذا الجحيم ، واصلنا الركض حتى وصلنا إلى شارع أغلقت مخرجه الوحيد عربة مدرعة وبدأ الجنود ينتشرون حولها وهم ينصبون رشاشاتهم الثقيلة والمتوسطة خلف سياج من الأسلاك الشائكة ،فجذبني العجوز من يدي نحو أحد الأزقة التي تتفرع من هذا الشارع فالعودة الى الخلف في هذه اللحظة انتحار

اكيد واللجوء الى افراد الجيش غير معروف العواقب.
ما إن دخلنا الزقاق حتى رحنا نلتقط أنفاسنا المتلاحقة ورحت أراقب الشارع بحذر ،كانت السيارات تغادر الشارع وتخلف خلفها صوت صرير إطاراتها وهى تحتك بعنف على الإسفلت أشرت نحو وجه العجوز بيد مرتجفه فمسح العجوز عدة قطرات من الدم إلتصقت على وجهه وهو يحدق في كفه قائلاً :
• دماء أحدهم تناثرت علي .
هززت رأسي إيجاباً وأنا أستعيد مشهد الرصاص وهو يضرب عدداً من الأجساد التي ركضنا جوارها لتتناثر دماؤها في الهواء وعلى وجوهنا.
كان الضجيج يتعالى والأصوات تزداد إمتزاجاً وفوضوية....أبواق السيارات المذعورة....صرخات الفزع....ازيز الرصاص الكثيف.... تحطم النوافذ والواجهات الزجاجية.... مزيج عنيف من الأصوات لا يمكن إحتماله.... يبدو أنني أعيش كابوس ما....شعرت بقبضتين تطوقان عنقي وتمنعان الهواء من الوصول إلى رئتاي نقلت بصري نحو العجوز كان ما زال يتحدث عرفت ذلك من حركة شفتيه اللتان لم تتوقفا عن الحركة منذ أن دخلنا هذا الزقاق أو ربما منذ عرفته... شعرت بجسدي يتهاوى تحت وطأة الدوار الذى أحال كل الأصوات في أذناي إلى طنين مزعج لم أقوى على الإحتمال فجلست القرفصاء أتابع الشارع الذي بدأ يخلو بوتيرة متسارعة وفجأة خبت كل الأصوات وعم هدوء شديد في المنطقة نقلت بصري نحو العجوز الذي ظل يتفحص الشارع بدقة فقلت له بضعف وأنا أمسك بطني بكلتا يداي :
• لماذا لم نساعد ذلك الرجل ؟
ما زلت أشعر بقبضته المتشنجة تقبض على ساعدى، و مازالت نظراته المتوسلة تعتصر ذاكرتي اعتصاراً مخيفاً، يرغمها على التركيز في إدق تفاصيل المشهد، اجاب العجوز بصوت جاد وهو يرفع حاجبيه الكثين متسائلاً :
• ومالذي كان بامكاننا فعله لننقذ حياته ؟ هل انت طبيب مثلاً ؟
هززت رأسي نافياً بضجر فتابع حديثه متجاهلاً :
• اذا كنت كذلك فهيا بنا لانقاذه وانقاذ الاخرين .
راحت وتيرة الالم تتصاعد في بطني فضربت الجدار بقبضتي وقلت له بحدة وانا اكبت موجة من الم تحاول ان تطفوا على صفحة تعابيري بوحشية فظة :
• كان بامكاننا على الاقل اخراجه من ذلك الجحيم ، وحتى ان لم نقدم له شيئاً

الا ان ذلك على الاقل سيمنحنا سبباً ولو بسيطاً للبحث عن راحة الضمير .
اقترب العجوز مني وجلس امامي وامسك بركبتاي وهو يحدق في عيناي قائلاً بحدة :
• وماذا بعد ان نخرجه؟ الى اين سنذهب به ؟ليختبىء معنا في هذا الزقاق ؟!
احسست بالتقزز من هذا العجوز ومن طريقة حديثه ولم اعد اطيق تحديقه فى عيناي على هذا النحو، فنفضت بعصبية كفيه الممسكين بركبتاي ونهضت بعصبية وانا اقول بعنف :
• كان يمكننا المحاولة المحاولة على الاقل.
امسك العجوز بكتفي بقوة فاستدرت نحوه فشاهدته وقد اكفهر وجهه وجحظت عيناه على نحو مخيف جعله اشبه بأسد يستعد للانقضاض على فريسته وبصوت غاضب بدا وكأنه يتقيأ جنازيراً واثقالاً انتزعها من قاع جحيم خرافي ليلقيها في اذناي كلمة كلمة وحرفا حرف :
• جل ما كنا نستطيع فعله هو نقل مكان موته من الميدان الى هذا الزقاق بين اكداس القمامة هذه هذا ما نستطيع فعله ،هل تظن نفسك ياهذا في نزهة ؟تأخذ ماتشاء وتدع ما تشاء وتقرر ما تشاء ، خروجنا من ذلك الميدان كان مجرد مصادفة ربما لن تتكرر ابداً .
لوحت بكفاي امام وجهه بغضب وانا اقول مقاطعاً :
• كفاك هراء ياهذا لقد سئمتك وسئمت البقاء هنا والانصات الى هذيانك وسئمت النظر الى وجهك البائس ، بالفعل انا اقرر ما اشاء وافعل ما اشاء وسترى ذلك ، سأذهب لاحظار ذلك الرجل وليكن ما يكون ، و لاتحاول منعى .
انهيت عبارتي وانا اشهر سبابتى فى وجهه محذراً، اطرق العجوز ببصره الى الارض لحظات قبل أن يضع كفه على كتفي وهو يقول مهدئاً :
• حسناً.... حسناً ليكن ما تريده سنذهب لإحضاره ،لكن من الأفضل أن ننتظر قليلاً فما زال الوضع في الخارج خطراً .
نفضت كفه من على كتفي وقلت جاداً :
• سأذهب الآن .
أجاب بصوت قاس :
• قلت لك ليس الآن إنتظر .
أشحت بوجهي عنه بلامبالاة ، وقلت بصوت مملوء بالغضب والضجر وأنا استدير

بحركة مباغته متجهاً نحو الشارع :

• سأذهب حاول منعي إن استطعت .

ولم يكد قدمي يطأ أرض الشارع الإسفلتي حتى شعرت بيد قوية تجذبني بعنف من الخلف نحو الزقاق لتلقى بي وسط أكياس النفايات المكدسة بعشوائية، ماكدت أستقر بين الأكياس حتى تناثرت قطع الأسمنت والحجارة من مدخل الزقاق المطل على الشارع وبشكل كثيف ومتواصل، دفنت رأسي بين ركبتاي أحاول أن أقي رأسي من تناثر الحجارة وقطع الإسمنت واختلست النظر فرأيت العجوز منبطحاً على الأرض وقد طوق رأسه بذراعيه.

إستمر المشهد لثوانٍ طويلة وثقيلة ما إن هدأ الضجيج حتى رفعت رأسي ببطء كان الزقاق مكتظاً بالغبار وبرائحة البارود وما زالت بعض النيران الخافتة تشتعل في الجدار.

نهض العجوز ببطء وهو ينفض الغبار عن جلبابه وعن شعره ولحيته قائلاً بحزم وعيناه تقدحان شرر:

• أحمق كدت أن تقتل نفسك.

نهضت مذهولاً متعثراً وعيناي مسمرتان على وجه العجوز على غير معنى ، انتزعت عيناي اللتان التصقتا رغماً عني و على غير معنى بوجه هذا العجوز ورحت احدق فى الجدار الذي خلفت عشرات من الطلقات حفراً غائرة ملتهبة على واجهته، تابع العجوز حديثه وهو يضغط بغيض على كلماته باسنانه وهو يشير نحو الجدار:

• إنظر إلى الجدار.... أبناء الكلبة يستخدمون رصاصاً حارقاً... كان من المفترض أن تكون الأن جيفة تحترق عند مدخل الزقاق، هل مازلت مصراً على الخروج ؟

راح الذهول والخدر يمضغان جسدي وذهني بجنون ، لم استطع استيعاب ما حدث ، يالهي كنت أقف وجهاً لوجه أمام الموت ، لم يفصلني عن الارتماء في أحضانه سوى أجزاء بسيطة من الثانية ،راح صوت العجوز يذوي.... ويذوي إلى أن خبى تماماً ومعه كل الأصوات وعادت شفتاه تتحركان بذات الإيقاع السريع والغاضب....ظل العجوز يتحدث بعنف وهو يشير بسبابته بغضب بين الحين والأخر نحو وجهي لا أدرى ... محذراً.... أم منبهاً... أم متوعداً... الألم يشتد في بطني.... الزقاق يهتز....ملامح العجوز تتموج وكأنها على صفحة

بركة هاجعة ألقى أحدهم فيها حجراً على حين غرة... عاد صوت العجوز ليبدو هذه المرة إيقاعه ثقيلاً ومؤلماً للغاية على أذناي فلم أستطع أن أميز ما يقول وضعت كفاي على أذناي لأخفف من وطأة ذلك الألم الذي اجبرني على الانحناء .....

وفجأة ودون مقدمات وجدت نفسي أفرغ كل ما تحتويه معدتي على قدماي العجوز الواقف أمامي....حاولت منع حدوث ذلك....إنما كانت إنقباضات معدتي أقوى من رغبتي ومن كفي الذي حاول حبس ذلك السيل المندفع من جوفي....

ظلت الانقباضات تتوالى و اندفاع السوائل يتوالى ،بعينين دامعتين لمحت العجوز يرفع طرف جلبابه ويسير بأطراف قدميه الحافيتين وعلى وجهه علامات الغضب الهادر ومازالت شفتاه تتحركان بوتيرة سريعة تنم عن عبارات غضب يطلقها إن لم تكن شتائم ،ومن خلف ستار الدموع ظللت أحدق فيه لحظات.....

ومذاق الحموضة يتعالى في فمي.

وبدأ الأفول يحتوي كل المشاهد أمامي و راحت الظلمة تلفني وعاد ذلك الطنين اللعين يدوي في رأسي على نحو مزعج ومؤلم للغاية وضعت كفاي على أذناي ، وانا اجثو على ركبتاي بوهن .....وأغمضت عيناي.....

•••••••

فتحت عيناي.....

وقع بصري على السماء الزرقاء ....كنت ملقاً على الأرض في ذات الزقاق ... إعتدلت في جلستي وحدقت فيما حولي أحاول أن أستعيد ما حدث ..... كنت مغماً علي بين أكياس القمامة وكان العجوز مازال جالساً في طرف الزقاق وقد إفترش الأرض واتكأ على بضع أحجار قرميد إنتزعها من الجدار الذي هشمه الرصاص،ظل العجوز يمضغ اوراق القات بشرود وهو يحدق في الجدار المقابل بصمت وقال بهدوء:

• أخيراً أفقت من غيبوبتك....لقد إستغرقت وقتاً طويلاً..... وعلى أي حال مازال الوضع خطراً في الخارج. يبدو أنك تعانى من مشاكل في معدتك أليس كذلك؟.

كان الصداع ما يزال يطوق رأسي وأشعر بآلام شتى تعتصر قفصي الصدري سألته في ضيق وأنا أحاول أن أتغلب على جفاف حلقي بصعوبة :
- هل سنبقى هنا طويلا ؟!
إلتفت العجوز نحوي بلامبالاه دون أن يجيب ثم عاد للتحديق في ذات النقطة على الجدار،لفتت نظري عبوة ماء معدني فأشرت نحوها وأنا أمسك بحلقي وقلت بصوت واهن :
• مـاء....بعض المـاء.
ودون أن ينقل بصره نحوى رمى بعبوة الماء نحوي فالتقطتها وشربت منها حتى إرتويت وضعتها أمامي فلمحتُ مسحوقاً اخضراً في قاعها رفعتها إلى مستوى نظري ورحت أتفحصها قبل أن أبصق بقرف وأنا أرمى بالعبوة نحو العجوز بغضب ومازلت أبصق وأبصق وأنا أردد بحنق:
• عليك اللعنة أيها العجوز.... ألا تحسن الشرب ....لقد أفرغت ما في فمك في جوف العبـوة.
إلتفت العجوز نحوي بلامبالاة شديدة وأجاب ببرود:
• حسبتك ستشكرني على إنقاذي لحياتك وعنايتي بك أثناء إغمائتك.... صحيح أنتم أبناء هذا الجيل تفتقرون للأدب.
حقيقة كانت عبوة الماء مملوءة ببقايا القات التي خلفها العجوز أثناء شربه وقد ولد هذا عندي شعوراً عميقاً بالقرف و الإشمئزاز ،لكن رد العجوز أشعرني بالفعل أني وضيع الخلق للغاية ومما زاد عمق هذا الشعور في نفسي عندما لمحت أوراق الصحف المتناثرة حولنا بعشوائية إستنتجت يقيناً أن العجوز نظف قدميه مما أصابه من نوبة القيء التي إجتاحتنى.... وبحرج شديد قلت متلعثماً :
• أشكرك أيها العجوز.....إعذرنى كنت مشوش الذهن ولم أستوعب الموقف.... أنا بالفعل شاكر ومقدر لك حُسن تعاملك معي.
كنت أتوقع أن يرد العجوز ولكنه لم يعلق على كلماتي سوى بإشارة لامبالاة من كفه التي تتدلى من على ركبته ، لكن - والحق يقال - زادني تصرفه هذا شعوراً إضافياً بالحرج فحاولت أن اطرد هذا الشعور من كياني وأنا أسأله بإهتمام:
• كيف الوضع في الخارج.... أهناك أي جديد؟
إلتفت نحوى بذات النظرة التي لم تفارق ملامحه منذ أن أفقت من إغمائتى

دون ان ينبس ببنت شفة ، ثم التقط علبة طلاء فارغة متوسطة الحجم كانت إلى جواره وألقاها نحو الشارع الخالي تماماً من أي حركة أو صوت وما كادت العلبة تلامس الأرض حتى إندفع سيل من الرصاص يتقاذفها ملقياً بها بعيداً.... و بإثر ذلك تناثرت قطع الإسفلت المحترقة حولنا .... فإلتفت نحوى وعلى وجهه ذات النظرة قائلاً بذات اللهجة التي لم تتغير:

• الجديد....أننا محشورون هنا....وهناك من يراقبنا ويعرف أننا هنا....ليس نحن بالمعنى الشخصي وإنما هناك من يعرف أن أحدهم فر إلى هذا الزقاق ويختبئ فيه و بالتأكيد فهم ينتظرون لحظة خروجنا بفارغ الصبر وبالتأكيد فلديهم الوقت الكافي للإنتظار فعملية البنك التي جرت اليوم قد أثارت ولاشك جنون الجميع المهاجم والمدافع وفتحت شهيتهم لسفك الدماء على النحو المريع الذي شاهدته.

عاد العجوز إلى مضغ القات وأردف قائلاً بعد أن لاحظ تغيراً واضحاً في ملامحي :

• أعرف أنك تعاني من مشكلة ما في معدتك والتوتر يزيد من إثارة هذه المشكلة لذلك إهدأ سنحاول أن نجد مخرجاً من هذا المازق.

نقلت بصري بينه وبين الجهة الأخرى من الزقاق والتي كانت بطبيعة الحال مسدودة ولا توجد أي نوافذ على أي من جانبي الزقاق وتمتمت قلقاً:

• فطريقك مسدود...مسدود.... يالله لماذا وضعتني في هذا الموقف ؟

اسندت ظهري الى الجدار وطوقت ساقاي بذراعاي ، وجدت سيلا من الصور ينساب امام عيناي.....

كنا في ذلك الميدان، وتيرة الحياة تسير بصورة قد تبدو للوهلة الاولى جد طبيعية،لا ادري كيف اسدل الموت عباءتة على الزمان والمكان بهذه السرعة ، شيء رهيب ان تجد نفسك ملقاً على غير موعد فى قلب اعصار من الموت والدمار،لا اصدق ماجرى وكيف جرى بهذه السرعة،يد الموت كيد جراح ماهر يحمل مبضعاً ماضياً يعمل بسرعة وبدقة متناهيتين يصعب علينا نحن بني البشر استيعابهما بل وحتى التكهن بمكان حلوله الجديد،بعض الدماء وبعض الدمار وجبال خرافية من الاحزان هى جل ما يمكن ان يخلفه وراءه ، الا ان هذه الاثار على عظمتها وثقلها علينا نحن بني البشر الا انها اشد ما تكون خفيفة في حساب الدهر وفي حساب ما يخفيه الغيب.....

ومع ذلك فالجميع يتقبل هذه النتيجة كحتمية صارمة لا فكاك منها .

إلتفت العجوز نحوي وهو يقول :
• طوفان الشر هذا نحن من صنعناه بأيدينا وبأطماعنا التي لا حدود لها وبالتأكيد يابني لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا.
التقط العجوز عبوة الماء وأفرغها في جوفه قبل أن يلقي بها في الشارع لتلتهما الرصاصات بسرعة مُخلفه خلفها عاصفة من الحصى ورائحة الإسفلت المحروق ظللت أحدق في الشارع لحظات ومازالت عشرات من الصور والأفكار تجول في ذهني،وفجأة نهض العجوز ولف جلبابه حول وسطه وراح ينتزع القرميد من الجدار الذي هشمته الرصاصات وعلى الرغم من أن في ذلك الكثير من الصعوبة فقد راح
العجوز يضرب القرميد براحة يده تارة وتارة أخرى بقرميد أخر.
ما لبث أن التفت نحوي وهو يقول باستغراب:
• ألا تريد أن ترحل؟!
ظللت احدق في عينيه لثوان بدهشة واستغراب قبل أن أجيبه:
• نعم أريد ذلك.
امتقع وجه العجوز غضباً وصاح بصوت هادر جعل جسدي ينتفض رعباً:
• إذن هيا.... مد يدك لتعمل.
نهضت متعثراً بأكياس القمامة ورحت أقتلع أحجار القرميد الواحدة تلو الأخرى وأنا أسترق النظر خلسة إلى ملامح العجوز الذي بدت عليه الجدية والهمة العالية في العمل وقد غطاه التراب.
سألني بصوت عال دون أن يلتفت نحوي وقد ارتسم على شفتيه شبح إبتسامة غامضة :
• لم تسألني من أين حصلت على عبوة الماء وأوراق القات؟
إلتفتُ نحوه وقد ادركت مغزى سؤاله ولم أجبه سوى بإبتسامة خافتة....ومن بعيد تعالى صوت دراجة نارية تسير مسرعة هكذا إستنتجت من صوتها الحاد أعقب ذلك صوت إطلاق نار كثيف حجب صوت الدراجة النارية لحظات ما لبث أن هدأ كل شيء.

كان إطلاق النار الكثيف يتكرر بين الحين والأخر وبإيقاعات مختلفة.... النداءات عبر مكبرات الصوت تتوالي معلنة حظر التجوال حتى إشعار أخر ،رائحة البارود تطغى على كل شيء هنا وتقتل كل أمل في الحياة أو رغبة فيها .... كان الماضي مؤلماً لكنه لم يعد كذلك الآن،فالواقع المعاش أشد سوءً من الماضي بكل المقاييس ولا يبدو أن لعلعة الرصاص هذه ستنتهي قريباً أو أن إستمرارها سيضع حداً لما يجري فمتى تدحرج دولاب الفناء فلا يمكن لأحد أن يوقفه، وإن توقف هذا الدولاب عن حصاد الأرواح وعن تدمير العمران ،إلا أن ماخلفه من دمار عميق أصاب النفوس والمثل والأخلاق وصدع بوحشية صلات القربى ومزق وشائج الرحمة التي تربط بين كيانات المجتمع ليتحول بذلك الناس إلى وحوش راجلة قاسية وأنانية الطباع إلى حد الإستحالة تستميت لتعيش يوماً أخر على جبين هذه الارض على أي وجه كان، يستحيل أن يحتوي هذا الدمار أي منهج إصلاحي لعقود طويلة مقبله ،فما عطب في النفوس في يوم لن تستطيع بالتأكيد إصلاحه في سنوات.

إنتهينا بصعوبة من عمل فتحة في الجدار أشار لي العجوز فعبرت بصعوبة وبحذر إلى داخل المبنى وتبعني العجوز على التو.

وجدنا انفسنا في متجر عملاق لكنه للأسف يكاد يكون خاوياً من أي بضائع عدا بعض الكماليات معظمها مهشم او محروق ومرمي على الارض الى جوار اكوام من الحطام والاثاث المحطم ،فوضى عارمة تعم المكان لا تستطيع ان تميز شيئاً عن شيء اخر...ظللت أجول ببصري في المكان بذهول ،شاهدت أطرافاً بلاستكية لمجسمات بشرية تناثرت في المكان بعد أن تم حرقها وتحطيمها، قشعريرة باردة سرت فى جسدي رغما عنى احسست بذاتى تنتفض رعباً وانا احدق برعب فى عشرات السواعد والايدي المتشنجة وهى تمتد من بين الحطام وكأنها تحاول التمسك بأمل ما ينقذها من هذا المصير المتوحش ،بدت هذه الاطراف وهذه الوجوه المحروقة حقيقية الى حد كبير بأدق تفاصيلها التى بدت لي تعابير عصية على الفهم لكن قد يدفعنى الجنون لأن اقول بأنها تعابير ألم متوحش يوازي ألالام البشرية جمعاء اجتاحتها في لحظة ضعف ، اشعر بأني أقف في مكان يشهد انبعاثاً خرافياً لضحايا ملحمة إغريقية مرعبة ،تمضغ الأجساد بجنون وتلفظ الأشلاء بجنون اكثر يستعصى على آياً كان تخيله .

.... ظللت أدور حول نفسي أحدق في المكان، انه نسخة طبق الأصل من ذلك المتجر الذي لم يكن يبعد عن منزلنا سوى امتار قليلة،مازلت اتذكر ذلك المكان جيداً منذ كنت طفلاً، كثيراً ماكنت اشترى منه بعض المثلجات خلسة عن والدي وكثيراً ما كنت أتى برفقته إلى هناك ، يا الهي هل من الممكن ان يوجد مكانين متشابهين الى هذا الحد حتى فى ادق التفاصيل التى يمكننى ان استشفها حتي فى خضم هذه الفوضى العارمة ؟ ام انها هلوسة بصرية خلقها عقلي المملوء رعباً وجسدي المترع برحيق الهرب لا ادري بالفعل لا ادري ،رغم السنوات الطويلة التى مرت الا اننى ما زلت أتذكر صاحبه الكهل اللبناني (يوسف حنا) بابتسامته التي لا تفارق شفتيه أبداً والذي لم يتخلى عن لكنته الشامية الصرفة أبداً رغم طول إقامته هنا .

كأنني أراه الآن واقفاً خلف صندوقه الآلي يداعب ألته الحاسبة الكهربائية وهو يحدق إلي من خلف زجاج نظارة طبية مكبره.... يوسف حنا بجسده البدين و رأسه الأصلع وبحمال البنطلون وقبعته اللذان كانا جزءاً هاماً وأساسياً من هيئته منذ عرفناه ومع ذلك فقد كان زيه غريباً علينا في حينها، كانت شخصيته في ذهني حينها أشبه بشخصيات والت ديزني ... أين هذا الكهل الآن؟... أتراه مازال على قيد الحياه؟ وإن كان كذلك.... أتراه غادرنا إلي موطنه....أم أن أذاً أصابه.

حينها كانت الرفوف متخمة بكل ما يخطر ببال أي متسوق.... لكم كُنت أدهش من ذلك الكم الهائل من الناس الذين يرتادون ذلك المتجر ، ولكم عجبت من تلك المصابيح الضخمة التي تضيء كل زاوية هنا ومن تلك المجسمات البلاستيكية التي تحاكي في تصميماتها الجسم البشري بأدق تفاصيله ، كان ذلك الكهل يعرض على هذه المجسمات أرقى ما يصل إلى متجره من أزياء ، لكن كل شيء ذوى الآن،لاشيء هنا او هناك سوى الموت والفناء.... الظلام يسدل ستاره على كل شيء ...شظايا الزجاج تتناثر على الأرض ...الرفوف خالية ومعظمها محترق، رائحة الأثاث والبلاستك المحروق تعج في المكان.... الجدران والواجهات الإعلانية كستها طبقة من السخام الأسود.

كنت أسير على غير هدى أحدق فيما حولي أسترجع و أقارن ما كان بما هو كائن.

شعرت بيد توضع على كتفي لتنتزعنى من الدوامة التى بدأت اسقط فيها،

استدرت إلى الخلف لأطالع وجه العجوز وهو يشير برأسه هامساً :
• هيا بنا .
إستدرت إلى الخلف وبدأنا نعبر البهو الفسيح نشق طريقنا وسط الحطام وصوت عويل الريح يتردد في المكان ممزوجاً بصوت أنين المفاصل المعدنية لبقايا الأبواب والنوافذ التي ظل يتلاعب بها الريح على نحو يزيد من وحشة ورهبة المكان.
أشار لي العجوز بإصبعه هامساً ومحذراً:
• حاذر من النوافذ .
قالها وهو يحبوا أسفل إحدى النوافذ المهشمة مشيراً إلى أن أحذو حذوه ،وبدون أي نقاش فعلت ما فعله العجوز حتى وصلنا إلى الباب الخلفي للمتجر كان مفتوحاً والريح تعبث به لتصدر مفاصله صريراً حاداً متواصلاً...ً امسك العجوز بدفتي الباب وهو يتطلع للخارج بحذر و دون أن يخرج رأسه فقلت بحنق :
• زقاق أخر !
لم يجب العجوز وإنما استمر في تفحص المكان بعينين حذرتين وفاجأنا صوت من الخلف قائلاً بهدوء :
• إن خرجتما من هذا الباب حتماً ستقتلان.... هناك قناص في أحد المباني عند مدخل الزقاق .... لا فائدة من المحاولة .
إلتفتنا نحو مصدر الصوت فشاهدنا رجلاً في العقد الرابع من العمر اشعث الشعر متورم العينين نمت لحيته بشكل خشن وفوضوي ،وعلى الرغم من نحالته وبروز عظام وجنتيه بشكل ملفت إلا أن هيئته بدت رياضية نوعاً ما ،لا أدرى حقيقة من أين أتيت بهذا الاستنتاج ربما من زيه وحذائه الرياضيان.
التفتُ نحوه قائلاً باهتمام وأنا ما زلت أتفحص ملامحه و شد إنتباهى وشم بالغ الجمال لنسر يفرد جناحيه على اخرهما نُقش على ظهر كفه اليمنى التى رفعها ليهرش لحيته بتلذذ واضح:
• وكيف استطعت معرفة ذلك؟
أشار الرجل إلى عشرات الثقوب في الأرض وعلى الجدار المقابل قائلاً:
• إني أحفظ المكان عن ظهر قلب ولا أمل لكما اليوم بالمغادرة يبدو أن العملية التي جرت اليوم استدعت إعلان حظر التجوال وبالتأكيد فالقوات في حالة

إستنفار تجعلهم يطلقون النار على أي شيء يتحرك في الخارج .... إتبعاني.
إستدار الرجل وهو يلوح بكفه وراح يعبر الأرض المفروشة بالزجاج المهشم بخطى هادئة واثقة وهو يقول بلامبالاة :

• اه نسيت.... لقد أردى ذلك القناص شخصين منذ أيام كانا يقفان في ذات المكان الذي تقفان عليه ،وكانا على عجلة من أمرهما على ما يبدو ،تستطيعان أن تريا أثار الدماء على الجدار فى الخارج،وعلى أي حال فجثتيهما مرميتان في باحة احد المنازل خلف هذا الجدار ،لحظات وستحمل الريح حتماً رائحتهما إليكما،لكنى لا أنصحكما بإخراج رأسيكما لإلتقاط الرائحة .

توقف الرجل والتفت نحونا لحظات قبل ان يقول وهو يشهر سبابته نحونا محذراً

• القرار لكما .

كلمات الرجل وطريقة تعامله معنا ولدت في نفسي شعوراً غامضاً بالثقة نحوه تبادلت النظرات مع العجوز الذي مط شفتيه مستسلماً وأشار لي بكفه نحو الرجل ،وبخطوات سريعة لحقنا بالرجل إلى غرفة كانت فيما مضى على ما يبدو مخزناً صغيراً ملحقاً بهذا المتجر؛ دلفنا إلى الغرفة التي تم فرشها بقطع الكرتون وأكياس القمح الفارغة كانت الروائح هنا نفاذة ومزعجة للغاية ابتدء من رائحة الشيشة ورائحة الكرتون وأكياس القمح التي أصابها البلل إضافه إلى رائحة الحمام المجاور للغرفة فلا أدري كيف يستطيع أحدهم البقاء والإقامة هنا.... جلسنا على الأرض إلى جوار مصباح زيتي يضيء الغرفة الخالية من النوافذ .

اقترب منا الرجل ووضع أمام كل واحد منا علبة ساردين وبعض البسكويت وإبريق ماء.... وقال باسماً ليكشف عن صفين من الأسنان البنية اللون لم ألحظهما من قبل :

• لا شك أنكما جائعان هيا.... بسم اللّه .

أنهى كلماته وهو يتجه للجلوس على فراش سميك من الاسفنج المتسخ وشرع يشعل قطعا من الفحم داخل وعاء معدني اعتقد انه كان فيما مضى خوذة جندي ، فى اثناء ذلك قذف العجوز بما تبقى في فمه من أوراق القات على الأرض والتقط علبة الساردين وبدأ في تناول طعامه بنهم عجيب ظللت أحدق في العجوز وأنا أمسك بعلبه الساردين بيدي وقلت له مازحاً:

• ألا ترى أن هذا جيل يجدي نفعاً؟

أجاب بفم مملوء بالطعام تخالطه ابتسامة ماكرة:

• على نحو ما .... تستطيع القول حادث شاذ.... والشاذ لا حكم له .
قهقه الرجل ضاحكاً وهو يسحب نفساً طويلاً من شيشته التى جعلت المكان يعبق برائحة التفاح.... فلم أجد بداً من الأنهماك في تناول طعامي.... كانت أصوات الرصاص مازالت تدوي بين الحين والأخر يخالطها صوت إنفجارات مكتومة تأتى من بعيد وأحياناً تقترب هذه الإنفجارات فتهتز الجدران و الأرضيات وربما المبنى بأكمله على نحو مريع .
قال الرجل متحسراً وهو ما زال ينفث الدخان في الهواء بكثافة :
• كل ما في البلاد يدمر....مجهود عقود من التنمية و الإعمار تُدمر في لحظات.... أتسمعان أصوات الإنفجارات ؟.... إنهم يقصفون بالمدفعية و الكاتيوشا في مكان ما....باللّه عليكما من يقصف من؟...وأين تسقط هذه القذائف؟... من المؤكد أن المعارك تدور الآن في الأحياء السكنية في الأطراف الشمالية من المدينة.
وعلى الرغم من ان شعوراً غامضاً وقوياً راودني جعلني على يقين بأن هذا الرجل لديه الاستعداد لأن يتحدث لأسابيع طويلة دون توقف إلا أني اعترفاً ورداً لجميل هذا الرجل تجاهلت هذا الشعور ووجدت نفسي اسأله باهتمام :
• كيف يعيش الناس هنا ؟ و متى يخرج الناس إلى قضاء حوائجهم في هذه المدينة؟طالما والمعارك مستمرة على هذه الوتيرة؟
أشار الرجل نحوي بمشرب الشيشة وهو يقول من خلف سحابة دخان كثيفة:
• هذا يعنى أنك لست من هذه المدينة ! لا يهم.... إنما لابد من فترة هدوء تحل في المدينة ليجد الناس فرصه للخروج للتزود بالمؤن النادرة أصلاً ؛ وأحياناً يلجا المتحاربون إلى غض الطرف عن أي تجوال لمدنيين لدواع إنسانية متجاهلين الضرورات الأمنية التي تفرضها هكذا ظروف ...على أي حال فقد تكون النتيجة هي ذاتها بالنسبة للمدنيين فإما البقاء في المنزل والموت جوعاً أو مرضاً أو عطشاً أو تحت القصف كما تسمع الأن وإما الخروج والموت على يد أحد طرفي القتال وهناك حيز بسيط للمخاطرة بين هاذين الخيارين يسلكه معظم الناس إما للفرار نحو أماكن أكثر أمناً وإما للبحث عن المؤن.
رد عليه العجوز وقد بدا أنه أنهى طعامه وراح يفرك كفيه وهو يقول :
• هل تصدق ياهذا... أشعر وكأنني في ستالينجراد في الحرب العالمية الثانية.... ذات الشعور وذات المأساة مع فارق الدمار في العمران طبعاً ....

لكنى على يقين بأن الدمار الذي أصاب القلوب هنا أكبر وأعمق بكثير من دمار البنيان هل تعرفان لماذا ؟
رفع الرجل حاجبيه مستفسراً وهو يسحب نفساً طويلاً من شيشته ،أصخت السمع في انتظار كلمات العجوز الذى ما لبث أن واصل حديثة بصوت عميق بدا وكأنه يأتي من أعماق بئر سحيقة :
• لأن ستالينجراد واجهت عدواً خارجياً وبعد انتهاء الحرب لم يجد أهلها صعوبة في طي صفحة الحرب ومآسيها ؛ إنما نحن أبناء الوطن الواحد نقتل بعضنا ونحارب بعضنا فكم باللّه عليك يلزمنا من الوقت لإزالة ما عطب في النفوس بين أبناء المجتمع الواحد.... أحياناً أخرى أشعر وكأنني في بيروت أثناء الحرب الاهليه...أنتظر قناصاً يطل من شرفة جاري أو سيارة مفخخة أمام السوق.... أو قذيفة مجهولة المصدر تسقط هنا أوهناك دونما هدف وعلى غير موعد وفى أحسن الأحوال خبر إغتيال سياسي أو أستاذ جامعي في صدر صحيفة الصباح.
أشار الرجل بإبهامه بامتياز نحو العجوز وهو ينفث الدخان في الهواء مرسلاً ناظريه نحو البعيد وهو يقول :
• تشبيه جميل جداً .... ورائع جداً أيها العجوز.... بالفعل ذات الشعور يراودنى.... زحلة ....البترون....الروشه.... الحمراء....الضاحية ....أشجار الأرز....البحر....كسروان....الجبل.
ضرب الرجل بكفه على جبهته وهو يتابع قائلاً بصوت وكأنه غائب عن الوعي:
• يااااه .... ياله من عالم لذيذ وذكريات لذيذة لقد عادت بي كلماتك ياهذا إلى أيام العز وأيام الحب و الجمال والحياه الحقيقية .
ثم نفث سحابه أخرى من الدخان وهو يقول بحماس:
• إخواننا اللبنانيون شعب متحضر....شعب يعرف قيمة الحياه....شعب يعيش حياته بالطريقة الصحيحة.... شعب يعشق الجمال ....كل شيء جميل يجذب إهتمامهم....أنا أعرفهم جيداً قضيت معهم أجمل سنوات عمري أيام لن تنسى كنت وكأني في الجنة ....ضحك....ولعب وحب وغناء ورقص هذه هي الحياة الحقيقية .
وشرع يصفق بكفيه بحماس ونهض ليرقص الدبكة الشامية وهو يدندن بصوت يملؤه النشوة.....
(فوق غصنك ياليمونة.....

.....

إستمر هرج الرجل الغير متوقع لحظات جاراه العجوز بتصفيق متواصل مبدياً إعجابه الشديد بالرجل وأفكاره ورقصته وسط دهشتي واستغربي من تصرفهما على هذا النحو وبين الحين والأخر كان العجوز يرمقني بنظرات حادة كي أجارى الرجل وبالفعل فعلت ما أراده دون أن أعرف السبب ؛ وبعد حوارات طويلة سأله العجوز باسماً :

• أرى أنك شبه مقيم في هذا المكان أليس كذلك ؟

أجاب الرجل بنشوة وفخر وهو يعود إلى مجلسه بأنفاس متلاحقة وجسم متعرق :

• نعم ..... فأنا أعمل هنا.

نقلت بصري بين العجوز والرجل وهممت بقول شيء إلا أن إشارة خفية من عيناي العجوز كانت كفيلة بحبس هذا السؤال في حلقي .

فسأله العجوز وعلى شفتيه إبتسامة ماكرة :

• وما هو عملك في هذا المبنى المدمر.... هل أنت حارس مثلاً؟

ضحك الرجل بهستيرية وقد بدت عيناه جاحظتان ولهجته مضطربة وهو يقول نافثاً سحابة دخان أخرى :

• لا .... لا.... أنا أحد أولئك القناصين الذين تفر منهم أنت وغيرك كالجرذان.

بدا الانفعال الشديد واضحاً على وجه الرجل وبدا خده الأيسر يختلج بشكل ملحوظ وهو يتابع حديثة بلهجة مضطربة متشنجة تقطر كراهية ومقتاً ليبدو وكأنه شيطان بشع بعث في هذه اللحظة من اعماق اعماق الجحيم ليقف أمامنا وجهاً لوجه ولم يعد يمت إلى ذلك الرجل الذي جلسنا معه والى هذا العالم بأي صلة تذكر:

• حارس.... قلت حارس.... أيها الغبي أنا عضو في قوات النخبه شاركت في قوات الردع العربية في لبنان عندما كنت يافعاً وشاركت في الحرب العراقية الإيرانية ... هاك شارتي أنا عقيد...عقيد أيها المسخ.

فيما وقع قلبي بين قدماي من الرعب إبتسم العجوز بدهاء وهو يلتقط الشارة الذهبية التي رماها الرجل بقوة بين قدماي العجوز الذي التقطها وراح يقلبها بين أصابعه وهو يقول ببرود:

• من السهل أن أحصل على شارة مثل هذه الآلاف منها يباع على الارصفة وبأثمان

بخسة ، لا أصدق لا يبدو عليك أنك في قوات النخبة كل ما يبدو عليك أنك حارس فقط لهذا المبنى المدمر لا أقل ولا أكثر.
جحظت عينا الرجل أكثر وأكثر وجلس على ركبتيه وقد بدا عليه الغضب الشديد وراح يدق صدره بقبضته بغضب قائلاً :
• لا تصدقني أيها الخرف!! حسناً .... حسناً.
إستل من أسفل فرشته بندقية أليه بمنظار مقرب وقدمها نحو العجوز قائلاً بغضب:
• هاك بندقيتي...مـ... .
لم يكد ينهى عبارته حتى هوى العجوز على صدغ الرجل بحجر كان يخفيه خلفه ليسقط على الأرض مغماً عليه إلى جوار سلاحه .
كل ذلك جرى خلال لحظات قليلة
كنت مشدوهاً بما حصل ولم أستطيع أن اصدق أو أن أستوعب ما جرى ،وسط بحر من التوتر والقلق زفر العجوز زفرة طويلة وهو ينقل بصره بين الرجل الفاقد الوعي والحجر الضخم الذي يمسك به ثم رماه بعيداً والتقط البندقية وبأصابع خبيرة ومدربة راح بسرعة يفكك البندقية الى قطع منفصلة التقط احدها ثم التقط خزانة الرصاص ونهض واقفاً وهو يقول :
• الحمد للّه، هيا بنا لنغادر ....لقد كنا على وشك أن نلقى حتفنا على يد هذا الحشاش.
عبرنا الممر الذي دخلنا منه في البداية وإتجهنا نحو الباب الخلفي وما إن بلغناه حتى توقفت وقلت للعجوز برعب:
• إلى هنا ويكفى لن أتقدم شبراً واحداً .... يمكننا البحث عن مخرج آخر أو إنتظار حلول الظلام لنتسلل دون أن يلاحظنا أحد .
تقدم العجوز بخطوات قوية ورمى نحو البعيد الزاخر بالأنقاض بخزانة الرصاص والقطعة المعدنية
ثم إلتفت نحوي وهويقول ساخراً:
• هل صدقت رواية ذلك الرجل عن القناص الذي ينتظر خروجنا؟
هززت رأسي إيجاباً وعيناي تدوران في المكان بقلق فتابع العجوز حديثه وبنفس النبرة الساخرة :
• القناص يا بني فاقد الوعي في الداخل .... ولا يوجد أحد في الخارج.
كانت كلمات العجوز واثقة وتبعث الطمأنينة في النفس إلا أن منظر الأرض

التي حفرها الرصاص في الخارج جعلت الشعور بالرعب والرهبة يطغى على أي شعور أخر فوجدت نفسي لا إرادياً أعود للخلف خطوات وأهز رأسي بالنفي وكأني أرفض فكرة الخروج من الباب بدافع داخلي لا إرادي، فأمسكني العجوز من كتفي وراح يهزني بعنف وهو يهتف بغضب:

• لماذا سيضعون قناصاً على باب منزل يكمن فيه قناص؟.... ألا تعقل... لن تطول إغماءة ذلك الرجل في الداخل وحتماً سيصحو وسيصبح الوضع أكثر تعقيداً....مما هو في نظرك الآن.

مرت لحظات من الصمت ظل فيها العجوز يحدق في ملامحي عل إشارة موافقة تصدر منى وبعد أن يئس من تغير موقفي إستدار إلى الخلف وهو يقول بلهجة عصبية:

- ليكن ذلك سأثبت لك عكس كل ما سكن في رأسك من حديث ذلك الرجل.

و بحركة مباغتة إندفع العجوز بجسده المكتنز نحو الخارج فاتحاً ذراعيه للريح كنسر عجوز مازال فيه بقايا من عنفوان الشباب ويأمل أن يحلق في الهواء بكبرياء الايام الخوالي، أغمضت عيناي ووضعت كفاي على أذناي و كأنى أحاول أن أمنع حدوث ما أتوقع حدوثه لهذا العجوز.

مرت لحظات من الصمت بدت طويلة ومريرة لم يعكر صفوها سوى صوت الريح تعبث بالأبواب والنوافذ المفتوحة، فتحت عيناي ببطء لأطالع العجوز مازال يقف فارداً ذراعيه في وسط الزقاق .... ويا للمفاجاءة لم يحدث شيء....كنت مازلت أقف مذهولاً من إثر ما حدث فأمسك العجوز بيدي وجذبني نحو الخارج وشرعنا في عبور الزقاق نحو زقاق أخر.... وامتدت شبكة الأزقة التي أصبحت ممرات آمنة نوعاً ما لكل من يحاول الهرب من هذا الأتون المشتعل أو الإلتفاف على حواجز التفتيش أو نقاط القنص الى أماكن وأزمنة أفضل حالاً من هاهنا.

صادفنا الكثير من الهاربين من أعمار وأعراق مختلفة يعبرون الأزقة بسرعة يحملون أمتعتهم أحياناً وأحياناً أطفالهم ومن لم يجد منهم ما يحمله فبعض من الدمع يكفى كرفيق لمشوار الهرب الطويل هذا.

مخالب الموت والرصاصات الحاقدة لم تدع لهم أي خيار آخر سوى الهرب المتكرر ،أو بمعنى أدق الهرب المتكرر العقيم ، الذي ينتهي بك حتماً إلى ذات النتيجة إن ظللت ماكثاً دون حراك في ذات المكان الذي أتيت منه، فبالتأكيد أن رصاصة تأتيك على غير موعد وبعد طول فرار تجعل من فرارك عقيماً وإن طال.

وعلى الرغم من المأزق الذي وجدت نفسي محشور فيه فقد راودني شعور غريب ومضحك في ذات الوقت، راودني وأنا أتبع خطوات العجوز المسرعة عبر الأزقة المكتظة بالأجساد الهاربة وبأكياس القمامة وبمخلفات المباني التي دمرها القصف كانت موجات الهاربين تأتي تارة بعكس إتجاهنا وتارة مع إتجاهنا وكأن الجميع يسيرون على غير هدى فلم أعد أدري إن كنا نسلك الطريق الصحيح أم أننا نخوض مع الخائضين؛كنا أشبه بالفئران في لعبه المتاهة التي ستنتهي في كل الأحوال بقتل الفأر سواء فاز أم خسر.....وعلى الرغم من صعوبة الموقف فقد جعلني هذا الخاطر أبتسم رغماً عني.

فجأة راحت الارض والجدران تهتز بوتيرة متصاعدة وكأن زلزالاً يتهيأ للانقضاض على المكان والزمان ،راحت بعض الجدران تتهاوى على نفسها لتثير ورائها عاصفة من الغبار وعاصفة من الاجساد الخائفة المتدافعة على غير هدى .

التفت نحو العجوز مستفسراً فرد بلهجة ساخرة وهو يتفادى جزء من جدار تهاوى بعنف امامنا لا يفصلنا عنه سوى بضع امتار:-

• انهم يعيدون رصف الطرقات !!

ظللت احدق فى وجهه المعفر بالتراب لحظات قبل ان ينفجر ضاحكاً وهو يقول بصوت عال حاول ان يتغلب به على الضجيج المتعالى :

• انهم يعيدون رصف الطرقات بالدبابات و المجنزرات، إحداها يقترب من هنا، هيا بنا لنلق عليها نظرة عن قرب .

وبخطى حذرة عبرنا عدة مبان مدمرة وفى وسط اخرها الذى يطل على الشارع اقتربنا بحذر من احدى الفتحات المطلة على الشارع،تعالى الاهتزاز زحفنا على الارض واطللنا بأنظارنا نحو الخارج، شاهدتها تتحرك ببطء وبوقار قاتل سادي يمر على جسد ضحاياه بهدوء ،ترافقها جوقة مزعجة من صرير معدني منبعث من جنزيرها الذى راح يمضغ الاسفلت بنهم،يحاكي لونها لون الصحراء العربية وتحمل على برجها الرقم 407 ،لسبب لا ادري ما هو وجدت نفسي امعن النظر في جنزيرها الذي لا يبعد عنا أكثر من عشرين متراً.

همس العجوز قائلاً:

• انها تى 90 الروسية ولاشك .

هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أشاهد فيها دبابة حقيقية على ارض الواقع، فسألته بذهول شديد :-

• والى اين سيذهبون بها باللّه عليك ؟
هم بالإجابة ولكن الدبابة وعلى غير موعد توقفت أمامنا مباشرة فأشار لى العجوز بالصمت والاختباء، تعالى صوت صرير معدني بإيقاع مختلف،خيل إلى انها غادرت المكان أطللت برأسي فشاهدتها مازالت فى مكانها، اشرت للعجوز ليرى ما أرى فرفع رأسه،شاهدنا مدفع الدبابة يدور حول نفسه ببطء 180 درجة أي الى الخلف تماماً قبل ان تسود لحظات اخرى من الصمت تبادلنا خلالها نظرات التعجب فسألته هامساً:
• هل ستتوقف هنا ؟
وقبل ان اتم سؤالى اطلقت الدبابة قذيفتها الاولى بدوى هائل اهتز له المكان وانهارت على اثره بعض الجدران المتهالكة حولنا وكذلك جزء من السقف، اعتصر الانفجار كل خلية فى جسدينا اعتصاراً وحشياً رهيباً،لمحت العجوز يمسك باذنية وهو يتلوى على الأرض بألم وبالتأكيد لم أكن أحسن حالاًمنه،وفى اثناء ذلك دوى صوت انفجار بعيد ليسود الصمت لحظات قبل ان تواصل الدبابة سيرها .
وعلى اثر ذلك غادرنا المكان متسترين بستار ثقيل من الغبار .....
دخلنا من نافذة إحدى البنايات المدمرة وعبرنا داخلها نتخطى الجدران المنهارة للغرف والحرائق الصغيرة التي مازالت تشتعل هنا وهناك بين أكوام الحجارة والأثاث؛كان منظراً مريعاً للغاية لم أشاهده من قبل .... لا أثر لأي حياة هنا....
مازالت بعض الصور لمن سكن في هذا المنزل معلقة على بعض الجدر المتهالكة وقد كسا بعضها طبقة سميكة من الغبار والرماد تكاد تخفى جل ملامحها ، ربما لم يسعف الوقت أصحابها لأخذها أو أن أمر اللّه نزل على حين غرة لينتهى بذلك الزمان والمكان في حساب هؤلاء القوم فلم يتبقى من ذكراهم سوى هذه الصور المدثرة بالغبار والرماد وهذه الجدر المتهاوية .
عدى صوت طقطقة الخشب الذي تأكله النار لا صوت آخر يمكن أن تسمعه فالصمت يغلف كل شيء وربما الموت يغلف كل شيء فيا للمفارقة فقد قيل أن الصمت لغة الموت.
وقف العجوز وهو يلهث بشدة مسنداً ظهره إلى بقايا أحد الجدر وهو يقول بأنفاس متقطعة :
• مسافة قصيرة تفصلنا عن المنطقة الآمنة ربما ثلاثة أو أربعة مبان من هنا؛

إن إستطعنا إجتيازها سنكون بأمان في الحي الجامعى..... ربما لبعض الوقت.
كنت بطبيعة الحال ألهث وأنفاسي تتلاحق بعنف فلم أملك سوى أن أهز رأسي إيجاباًوأنا أزدرد لعابي بصعوبة بالغة، وفجأة سمعنا صوت صفير طويل ومكتوم أعقبه صوت إنفجار قوي إهتز له المبنى بعنف وإجتاحتنا عاصفة من الغبار والحصى، لم أستوعب الموقف فجذبني العجوز لنحتمي أسفل أحد السلالم الموجودة في المبنى وتوالى صوت الصفير وصوت الأنفجارات وفى كل مرة يبتعد صوت الأنفجار إما شرقاً أو غرباً وفى كل مرة يهتز المبنى بشدة وتتساقط قطع الإسمنت من السقف و تتهاوى الجدران الداخلية على نحو مخيف ،إستمر سقوط القذائف لبعض الوقت حتى ساد الصمت.
ومن بعيد تعالت الصيحات الفزعة وأصوات خطوات مسرعة تعبر الأزقة والشوارع أعقبها أصوات أبواق سيارات الإسعاف على ما أظن تقترب من الأحياء التي تعرضت للقصف ، خرجنا بصعوبة من أسفل السلم الأسمنتي بعد أن أزحنا أكواماً من الحطام كادت تسد المخرج الوحيد لنا إعتدل العجوز وهو ينفض الغبار عن ثيابه و رأسه وهو يقول :
• كاتيوشا .... حتماً إنها كاتيوشا لا سلاح يمكنه أن يضرب بهذا الإيقاع وبهذا النسق الرتيب سواها....يبدو أن الأوضاع تسوء أكثر وأكثر .... هيا بنا.
سألته وأنا أفرك عيناي متألماً من بعض الحصوات التي قذفها الأنفجار في المكان:-
• هل تعتقد أن الحي الجامعي آمن فعلاً كما تقول ؟
غمغم العجوز باسماً وهو يلوح بكفه مغادراً :
• ألم اقل لك لبعض الوقت.
تناهى الى مسامعنا صوت يهتف بتردد :
• انتما .... انتما.
التفتنا نحو مصدر الصوت،ومن بين الركام خرج رجل نحيل اصلع الرأس يرتدي ثيابا رثة وغير متناسقة ،كان على مايبدو يحتمي اسفل كتلة كبيرة من الاسمنت المسلح كانت جزء من سقف او جدار... حقيقة لا ادرى،وبهيئة رثة ومعفرة بالتراب وخطى متعثرة قطع الرجل طريقه نحونا خائفاً مترددا هذا ما تستطيع ان تستشفه من حركة يديه اللتان تتحسسان وهماً يقف امامه ويخشى الاصطدام به،بصعوبة حاول ان يتبين ملامحنا وهو يقول بتضرع :
• خذاني معكما،فقدت نظارتي ولا استطيع الحركة بدونها،ارجوكم ساعداني .

زفر العجوز زفرة طويلة وهو يتفحص ملامح الرجل الذي بدت عليه اثار الصدمة والرعب الى ابعد حد :

• الى اين تريد الذهاب بالضبط ؟

رفع الرجل حاجبيه الكثين باستغراب ليبدو وكأنه لم يتوقع ان يلقى عليه هذا السؤال، جال بعينين مترددتين خائفتين في الأنحاء على غير هدى ثم قال مرتبكاً وهو يلوح بكفيه :

• إلى أين ؟ لا أدرى ،الى اين ستذهبان انتما ؟لقد كنت في الميدان و.....

قاطعته وأنا افرد كفاي أمام وجهي مشيراً له بالتوقف :

• سنوصلك الى منزلك ، أين منزلك ؟

التفت الرجل نحوى وظل يحدق في ملامحى لحظات وبشفتين جافتين تختلجان حزناً وبلسان ثقيل أجاب :

• انتم الآن في منزلى او فيما تبقى من منزلى .

تبادلت نظرات الاستغرب مع العجوز قبل ان يربت على كتف الرجل وهو يقول بلهجة تحمل عزاء واضحاً:

• و اين الأهل ؟

ارسل الرجل نظرات خاوية الى وجوهنا قبل ان يجيب بصوت مبحوح :

• فى نفوسة،اعتقد انهم فى نفوسة .

كتم موجة بكاء بدأت نذرها على هيئة دمعتين غادرتا عينيه لتشقا طريقيهما على صفحة وجهه المصفر والمعفر بالتراب،قبل ان يهز رأسه على غير معنى ليبدو وكأنه يطرد رتلاً من الصور والذكريات المتوحشة احتشد أمام عينيه اللحظة وتابع قائلاً :

• غادرنا هذا المنزل بمعجزة ،هناك عند الجدار.....

أشار نحو الزاوية التي كان يختبئ فيها وتابع بصوت مشبع بالبكاء :

• انهار السقف، و أودى بحياة أمي وطفلتي ،نعم هناك،كانتا نائمتين ،ثم ثم.... ثم انهالت القذائف على المكان ،ومن ثم انتهى كل شيء.

مسح الرجل دموعه بكم قميصه وافرغ انفه ثم حاول متابعة حديثه بكبرياء مصطنع حاول من خلاله ان يتدارك انفراط عقد مشاعره كلياً أمامنا :

• هل ستصطحبانني معكما؟

نقلت بصري نحو العجوز الذي اطرق بناظريه نحو الارض قبل ان يقول بثقة وهو

يربت على كتف الرجل :
• هيا بنا وليكن مايكون .
اطرق الرجل بناظريه لحظات نحو الارض ،ثم رفعهما بعد ان ازال بكم قميصه دفعة اخرى من الدموع غادرت عينيه رغماعنه،ثم قال :
• اشكركما.... اشكركما، هذا جميل لن انساه لكما ما حييت .
ابتسم العجوز وهو يضرب كتف الرجل بكفه وهو يقول بنشاط :
• هيا بنا لنحاول الوصول الى الحي الجامعي، وكفاك ثرثرة ايها البائس .
ضحك الرجل ضحكة قصيرة تحاكي ضحكة طفل راوده حلم جميل بعد يوم طويل حافل بالبكاء و الالم، أمسكت كتف الرجل وقلت له مشجعاً :
• هل تريد ان تسير أمامي ام خلفي ؟
أجاب بسرعة :
• لا لا .... سأسير خلفك لا استطيع الرؤية وسأتبع خطواتك، لكنى اخشي أن تنسيا أنني خلفكما وتتركاني .
ضحكنا من حديث الرجل قبل ان يرد عليه العجوز قائلاً:
• لا يا رجل اطمئن،اطمئن لن يحدث ذلك ابداً ، هيا بنا .
غادرنا المكان، أصوات الرصاص عادت لتعلو في الأنحاء بصورة متقطعة ،عادت الأرض تهتز تحت وقع الجنازير الثقيلة، كان الرجل يخطو خطواته ببطء وحذر مستندا بكفيه على كل ما يقابله ،مما يجعلك تدرك تلقائياً بأنه بالفعل يعاني من ضعف شديد في النظر يؤثر الى حد كبير في قدرته على السير ،ومع ذلك فقد كان بحاجة ماسه للمساعدة فقد ساعدته كثيراً على عبور الحفر والفجوات المصنوعة بين المباني وكذا تفادي النوافذ المطلة على الشارع وعلى البنايات الأخرى، لم نكن إجمالا نسير في خط مستقيم ، بل بخط متعرج ،تفرضه طبيعة الممرات التي حفرها الفارون وحفرتها القذائف على جبين هذه الارض،مما ينبئ بأن طريقنا قد يطول ويطول، قبل أن يغادر هذا الخاطر ذهني سمعت صوت ارتطام شيء ثقيل بالأرض ومن ثم صوت خوار، التفتُ إلى الخلف فلم أشاهد الرجل خلفي، عدت بسرعة مع العجوز عدة أمتار الى الخلف فشاهدناه ممدداً بين كومة من الحطام شاخصاً ببصره نحو السماء ،وراح جسده يتشنج وينتفض بشدة ، ملامح الألم بدت واضحة وعنيفة على جسده ، اختفت عيناه داخل محجريهما وسالت نافورة من الرغوة البيضاء من فمه ، ألقى العجوز

بجسده على جسد الرجل وهو يمسك أطرافه محاولاً تثبيته ، وقفت مذهولاً مسمراً على الرغم من صراخ العجوز لكنى بالفعل كنت لا أدرى ما اصنع؟ فهي المرة الأولى التي أشاهد فيها مصاباً بالصرع،دس العجوز قطعة من القماش أظنها منديلاً بين فكي الرجل الذي ازدادت وتيرة خواره وآلمه و ازدادت وتيرة انتفاض جسده الذي يرزح تحت وطأة ثقل جسد العجوز ،وبعد طول لغط هدأ كل شيء فجأة مثلما بدء،لا ادري كم مضي من الوقت، لكنى وكلما مر بي الوقت هنا أدرك يقيناً بأنه لا يوجد شيء يمكن أن نخشاه، فالموت يسدل عباءته على الزمان والمكان، وما هي إلا مسألة وقت لا غير ، ومسألة أنفاس تمضي وحسب ليجد الإنسان نفسه عاجلاً أم أجلا أمام قدره المحتوم.

ساعدنا الرجل على الوقوف ،وبعيون غائرة ووجه شديد الاصفرار و بذهن مشوش وخطوات متعثرة بدء السير،تركت مسافة صغيرة تفصلني عنه كي يظل بالقرب منى ان احتاج الى أي مساعدة ،ومع مرور الوقت بدا أن حاله يتحسن وبأنه بدء يستعيد توازنه،فتركته يسير كيفما يشاء وبالطريقة التي تريحه،فبدأت المسافة تتسع بيني وبينه ،تناهى إلى مسامعنا صوته وهو يقول بصوت عال يقطعه لهاث :

• لقد احظروا الدبابات بعد أن تم إحراق مدرعتين ، الأولى قرب الميدان والثانية على ما أظن في أطراف المدينة،لقد شاهدت بأم عيني المدرعة تحترق والى جوارها جثث الجنود قتلى والنيران تلتهم جثثهم ، لقد صب المسلحون الوقود على الجثث واحرقوها.

توقفنا والتفتنا في وقت واحد نحو الرجل الذي تابع مؤكداً بحماس واضح :

• لقد شاهدت ذلك بأم عيني .

اقترب منا ونحن ما زلنا نحدق فيه،قبل ان يخفض صوته وهو يتلفت حوله بحذر هامساً:

• ماذا هناك ؟

وبصوت واحد نطقناها حارة وطويلة:

• اااااااااااااااااااااااص .

تناهى إلى مسامعنا صوت صراخ رجل في الشارع ، اقتربنا بحذر من إحدى النوافذ المطلة على الشارع ورحنا نراقب الشارع فلمحنا رجلاً بديناً يبدو في العقد الخامس من عمره وقد تعفر جسده بالتراب والدماء تسيل من جبهته لتغطي جزءا من وجهه ورقبته وصدره ،راح يدور حول نفسه حاملاً بيده بندقية رشاشة وهو يصرخ

بصوت غاضب :

• أين أنتم يا كلاب .... إخرجوا.... أنا هنا اخرجوا يا كلاب .

قال العجوز هامساً وهو يضغط على أسنانه وكأنه يخاطب الرجل:

• إترك البندقية يا أحمق.... إترك البندقية .

إستمر الرجل في صراخه الهستيري وهو يدور حول نفسه بذات الوتيرة الغاضبة وما زال يشتم ويلعن، ودفعه الغضب إلى رفع البندقية وإطلاق عدة عيارات نارية في الهواء وهو يصرخ بذات العبارة الغاضبة :

• ليخرج أي كلب منكم ليواجهني هنا رجل لرجل .

لم يكد يتم عبارته حتى اندفع سيل من الرصاص من مكان ما انتفض على إثره جسده بألم مترنحاً ليدور حول نفسه نصف إستدارة و سقط على الأرض مضرجاً بدمائه.

قال العجوز بأسف بذات الطريقة السابقة وهو يضرب بقبضته على الجدار قائلاً:

• إترك البندقية أيها الأحمق.... إتركها.

في تلك اللحظة وصل الرجل لاهثاً،وهو يحدق نحونا- بعينين مشوشتي الرؤية - باستغراب قبل ان يقول :

• لماذا توقفتما هنا هل أصاب أحدكما مكروه ؟

أنهى عبارته وهو يقف أمام النافذة ،التفتنا نحوه، هممنا بمنعه أو تحذيره، وبينما أنا انطق كلماتي،شاهدت رأسه ينفجر كبطيخة لتتناثر محتوياته في الهواء و على الجدار المقابل ،وسقط الرجل على الأرض جثة هامدة شاخصة ببصرها نحو السقف تحدق فيه بجمود وألم ، وراحت أطراف الرجل تنبو بوهن على الأرض الترابية التي راحت تمتص بقعة كبيرة من الدماء بنهم وحشي مخيف .

كل ذلك حدث في ثوان قليلة،تسمرت عيناي على جثة الرجل الملقاة على الأرض وعلى بقع الدماء التي رسمت خطوطاً طويلة على الجدار المقابل ،وجدت نفسي أرسل نظرة خائفة نحو العجوز ونحو الخارج ،رحت انقل بصري بين الجثتين وبقع الدماء تكبر وتكبر فى عيناي الى حد الاستحالة .

اعتراني شعور رهيب بالخوف وبالحزن ومشاعر أخرى لا أدري ما هي ، إنما كان وقعها عنيفاً على نفسي لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أتهاوى على الأرض جالساً وأنا أرتجف بشدة .

أمسكني العجوز من ساعداي ورفعني ليثبتني على الجدار وما زال جسدي يرتجف

والكلمات تختنق في حلقي، وهزني عدة مرات وهو يقول بصرامة:
• هيا بنا ....إنهض وإستجمع قواك هل ستتهاوى هنا؟ إن بقينا هنا فسوف نلقى مصير ذلك الرجل .... هل تريد اللحاق بهما؟
هززت رأسي نافياً بصعوبة و أنا أمنع الدموع أن تسيل من عيناي، فهزني العجوز بعنف أكثر وهو يقول بحزم وقد ضغط على كلماته بأسنانه :
• إذن هيا بنا.... ودع الدموع للنساء.
أفلت يديه عنى ليتركني أستجمع قواي لحظات قبل أن أخطو على غير هدى أمام النافذة المحطمة فشعرت بيد العجوز تجذبني بعيداً لأقع على الأرض ليندفع سيل من الرصاص من المبنى المجاور إلى داخل المبنى الذي نحن فيه ليضرب الجدار المقابل بعنف،فقال العجوز بصوت عال وهو يمسك بيدي :
• لقد كشف موقعنا والبقاء هنا يعني الموت.... سنركض عبر هذا الرواق إلى أن نصل إلى المخرج.
رفعت رأسي لأشاهد الرواق الذي تحدث عنه العجوز كان عبارة عن ممر طويل ممتد أمامنا يوجد في أخره باب لكن المشكلة تكمن في أن هناك عدد هائل من النوافذ المتجاورة على إمتداد هذا الرواق والركض فيه مخاطرة كبرى لكن ما من مخرج اخر .
تابع العجوز قائلاً :
• ستركض أنت في المقدمة وأنا خلفك مباشرة .... عليك بالانحناء ما أمكن .... ولا تتوقف مهما حدث..... هل فهمت مهما حدث .
التقت عيناي بعيني العجوز،فأمسك بكفي وضغط عليه بكلتا راحتيه وهو يكرر قائلاً بدفء :
• هل فهمت؟..... مهما حدث لا تتوقف .
فهمت مغزى كلماته،ظللت أحدق في ملامحه التي ارتسمت عليها علامات الرضا واضحة وفاحت منها تعابير دافئة تحاكى تلك التي تفوح من محيا أب يوصي ولده .
هززت رأسي وأنا أضع كفي الأخرى فوق راحتيه وأنا أقول مستجمعاً قواي :
• ليمض أمر الله على أي وجه كان .
كلانا يعلم أن هامش المخاطرة ضئيل للغاية ،وأن العيون في الخارج تترصد ظهور جسدينا ونحن نتجه نحو المخرج الوحيد،والأصابع الخبيثة تتراقص على الزناد

متأهبة لاعتصاره بلذة ونهم وحتى أخر طلقة .
وجدت نفسي ارمق جثة الرجل بنظرة خاطفة ،ربت العجوز على ظهري مشجعاً فجلست القرفصاء وأنا أملاء صدري بالهواء مستجمعاً كل قواي وعيناي مسمرتان على المخرج في طرف الرواق.
إنطلقت ومن خلفي العجوز نركض بخط مستقيم بكل ما أوتينا من قوة.... ومن خلفنا كانت الرصاصات تندفع عبر النوافذ المطلة على الشارع الواحدة تلو الأخرى لتصطدم على الجدار المقابل بعنف وهى تثير عاصفة من التراب والحصى وشظايا الزجاج خلفنا حتى وصلنا إلى طرف الرواق ونحن نلهث بشدة قلت وأنا أحدق في المكان الذي كنا فيه وقد حجبته سحابة من الغبار تماماً :
•لقد نجحنا.... هيا بنا لنغادر هذا المبنى بسرعة حتما سيأتون لتفتيشه .
انزوى العجوز إلى إحدى الزوايا وراح يفرغ مثانته وهو يرمقني بنظرات تنم عن ارتياح شديد.... فبدا وكأنه يضع توقيعاً ساخراً في ختام ما مر بنا حتى الآن من أحداث .
وجدت نفسي أرسل نظرة أخرى على جثة الرجل في الطرف الأخر من الرواق قبل أن يربت العجوز على ظهري برفق مشيراً بالمغادرة ، ثم رحنا بخطوات حذرة نعبر المبنى ونحن نتحاشى المرور أمام النوافذ والفتحات التي تطل على الشارع ، و فجأة تعالت أصوات غاضبة وصراخ امرأة من الخارج فاقتربتُ من إحدى الفتحات الموجودة على أحد الجدران ورحت أسترق النظر للخارج فشاهدت مجموعة من الجنود وهم يجرون الرجل القتيل من يديه ليحملوه على عربة عسكرية في حين بركت بجوار بقعة الدم امرأة مسنة منكوشة الشعر وقد إكتست ملامحها بالتراب والدماء وهى تبكي بصوت عال وقد خضبت كفيها بالدماء، كان المشهد صعباً للغاية، فهمس بي العجوز قائلاً :
•هيا بنا لنغادر هذا المكان .... لا وقت لدينا .
واصلنا عبور المباني الواحد تلو الأخر ،لا شيء جديد يمكن أن نشاهده فمشهد الدمار يتكرر في كل مبنى ندخله وصلنا إلى مبنى يطل على منطقة محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة ومن خلفه سور عال يحيط ببعض المباني وقد بدت على سياج الأسلاك الشائكة بوابه كبيرة في الوسط يحرسها أفراداً يرتدون الزى العسكري لا أدري إلى أي جهة ينتمون إنما يبدو عليهم الإنضباط والثقة والهدوء في تصرفاتهم على الرغم من أننا في ساحة معركة بكل ما تحمله الكلمة من

معنى.... بالتأكيد ليسوا من أصحاب القبعات الزرق وأيضا ليسوا من القوات الحكومية لأننا من المفترض أننا نقصف من قبل القوات الحكومية.... أو ربما أكون مخطئاً في تخميني فقد إختلطت الأوراق أمامي ولم أعد أستطيع التمييز بين الأشياء ،وكل ما إستطعت أن أعرفه في هذه اللحظة أن هذا هو الحي الجامعي الذي حدثني عنه العجوز .

وللعلم كما علمت من هذا العجوز فيما بعد فالحي الجامعي كما يطلق عليه لا علاقة له بأسمه فهو لا يحتوي على أي جامعة أو على أي منشأة تعليمية إنما هو عبارة عن مجموعة من الوحدات السكنية تم بناؤها بذات المواصفات وذات المقاييس حتى إنك لا تستطيع التمييز بين هذه الوحدات إلا عبر الأرقام المنحوتة على باب كل وحدة ، تم تخصيص هذه الوحدات لسكن الطواقم التعليمية في الجامعات وبالتحديد الطواقم الأجنبية لدواع أمنيه ، وعلى الرغم من أن معظم هذه الطواقم غادر البلاد إلا أن البعض فضل البقاء هنا - حقيقة لا أدرى لما- ولعلك عرفت لم هذه المنطقة آمنة؟ مع أن لا شيء في هذه البلاد يمكنه أن يستعصى على القصف أو على الأقل أن لا ينخره الرصاص الطائش .

لا بعد إنساني لهذه المنطقة الآمنة ، إنما البعد السياسي هو الغالب هنا فالحكومة المركزية تسعى لنقل صورة للعالم الخارجي بأنها مازلت تملك القدرة على بسط الأمن ولو في مساحة لا تتعدى مساحتها الكيلومتر مربع، رغم أن قبل ما يقارب الساعة كانت قذائف الكاتيوشا تتساقط على مسافة تقل عن الكيلومتر من أقرب نقطة في سور هذه المنطقة ،المضحك المبكى أن الجميع وأقصد هنا الحكومة المركزية والثوار كما يسمون أنفسهم وكذا الطواقم الأجنبية ومن خلفهم العالم الغربي يعلمون أنه لا شأن لهذه الطواقم الأجنبية بهذا النزاع السياسي المسلح لذا ظلت هذه الطواقم على الحياد دون أن ينالها أي أذىً من هذه الحرب فمعظم هذه الطواقم من دول لا تملك تاريخاً استعمارياً يمكنه أن يشكل عاملاً لتأليب أياً من الأطراف المتنازعة عليها وكذلك لا يمكن إبتزازها عبر إختطاف رعاياها ،إنما لها ثقل سياسي و إقتصادي يجعل من هذه الدول هدفاً لسياسة جلب الود وكحليف متوقع يمكن أن يُقدم أو يُؤخر في بعض الأمور التي تتعلق بالسياسة الخارجية ، ومن هنا يتضح ذلك الخصام الأزلي بين كل ما هو سياسي وبين كل ما هو إنساني ،

لذا فلا غرابة إن سمعت مقولة (لا إنسانية في السياسة ولا سياسة في الإنسانية)

فالإنسانية هي العاطفة والوجدان وفورة الإحساس وإختلاج المشاعر إزاء معاناة الناس، أما السياسة فرصانة العقل وجمود القانون وتذبذب المصالح والمواقف ،هذه المعادلة تجعلني على يقين بأن أحداً لن يسمح لي أو لغيري من أبناء هذا البلد بالدخول إلى هذه المنطقة في أي حال من الأحوال .

همس لي العجوز قائلاً :

• اعتقد أننا في مأمن الآن سنبقى هنا حتى الصباح.... وفى الصباح سنجد لنا وجهة.

هززت رأسي إيجاباً وأنا مازلت أتطلع نحو الحي الجامعي كان الظلام قد بدأ يسدل أستاره وبدا الحي الجامعي مضاء بالأضواء الكاشفة من الجهات الأربع وعبر الفتحات التي صنعتها القذائف وكذا النوافذ المطلة على الحي كانت الأضواء تتسلل لتضيء المكان فلم أجد مناصاً من الموافقة على البقاء حتى الصباح.

سمعت صوت العجوز وهو يقول مبتعداً :

• سأذهب لإحضار بعض الطعام والماء.

شيعته بنظراتي وهو يتخطي أكوام الحطام في المبنى إلى أن ابتلعه الظلام اتجهت نحو أحد الأركان وخلعت حذائي ورحت أفرغه من التراب والحصى وجلست على الأرض وأنا أحدق في المكان ،كانت الجدران مهترأه و أعيرة الرصاص الفارغة تنتشر على الأرض بكثافة التقطت إحداها ورحت أتفحصها قبل أن أرميها بعيداً.... يبدو أن معارك عنيفة دارت هنا.

على بعض الجدران نقشت عبارات بعضها بالطلاء والبعض بالطباشير والبعض الآخر تم حفرها على بقايا الجدران الإسمنتية الى جوار نقوش غامضة المعنى ،اختلطت هنا العبارات ببعضها البعض على نحو غريب جمع كثيرا بين متناقضات كثيرة في المضمون ، كانت هذه العبارات وعلى الرغم من تباينها وتناقضها تعكس آمال و أماني من مروا من هنا .... عبارات تمجيد للثورة .... عبارات وداع للأهل والأحبة .... عبارات مفعمة باليأس والألم وأخرى تذكر أسماء من مروا من هنا.... كانت الجدران زاخرة إلى حد كبير بهذه النقوش التي شدت انتباهي ورحت أتنقل بين الجدران أتفحص كل نقش ليترك في الأخير أثراً عميقاً للحزن والأسى في نفسي، كانت عيناي تدوران في المكان تحاولان أن ترسما صورة لمن مروا أو قضوا هنا وفجأة توقفت عيناي عند السقف عند عبارة عريضة تخاطب قارئها بسخرية لاذعة (لماذا تنظر للأعلى هل أنت خائف) ؟إبتسمت

أو بالأحرى ضحكت من خبث كاتب هذه العبارة ومن هذه السخرية اللاذعة فرغم سيل المآسي والأحزان مازال هناك بالتأكيد فسحة للضحك والسخرية هذه هي طبيعة النفس البشرية ، من الصعب أن تقهرها الظروف والصعاب،عدت إلى مكاني ومازالت إبتسامة عريضة على شفتاي وتفاجأت بالعجوز يقف أمامي وجهاً لوجه وهو يحمل في حجره بعض الأغراض إفترشنا الأرض في أحد الأركان فأخرج العجوز من حِجره كرة من أوراق الصحف وضعها على الأرض وشرع في فضها فبدا أن فيها بعض الخبز الفرنسي وخياراً وأوراق خس وعلبة لحم معلب مفتوحة وعبوة ماء...

ابتسم العجوز وهو يشير نحو الطعام وقد بدأ بالأكل قائلاً :

• بسم اللّه

لم أجد مناصاً من مد يدي والأكل ، فلست ادري متى سأجد طعاماً آخر في ظل هذه الأوضاع ، وفى ظل مسلسل الهرب هذا الذي وجدت نفسي محشوراً بداخله رغما عنى ، وعلى غير موعد،لم أشأ أن أسأل العجوز عن مصدر الطعام ،.... فالأمر سيان بالنسبة لي في ظل هذا العوز وهذه الندرة لكل شيء يمكن أن تتخيله، أياً كان مصدر هذا الطعام فأنا أشعر بإمتنان كبير لهذا العجوز الذي أكاد لا أعرفه ولا أتصور كيف كنت سأتصرف من دونه،.... فلربما كنت الأن في مأزق ما،.... و لربما حصل قناص ما في مكان ما على ترقية أو على مائة دولار مكافأة نظير إطاحته برأسي ، بدا لي هذا الخاطر مضحكاً ، فأرتسمت على شفتاي إبتسامة خافتة وأنا أرفع نظري نحو العجوز الذي ظل منهمكاً في تناول طعامه بنهم فرفع نظره نحوي وقال بفم مملوء بالطعام :

• تناول طعامك....، فقد تكون هذه وجبتك الأخيرة في هذه الدنيا ، هيا كُل،هل تظن أن ذلك الحشاش سيتركنا بعد ما فعلناه به؟ لابد وأن أوصافنا قد تم تعميمها على كل نقاط المراقبة وصرنا في قوائم المطلوبين وصار الجميع يبحث عنا.

إرتسمت إبتسامة قلقة على وجهي إثر سماعي لكلماته الأخيرة فسألته وأنا التقط بعض الطعام وأدسه في فمي :

• من أنت أيها العجوز؟

قهقه العجوز بفم مملوء بالطعام ورد ساخراً:

• سؤال متأخر أيها الفتى .

شعرت بغباء سؤالي فشعرت بالحرج من رد فعل العجوز فبادر قائلاً :
• نحن كفأرين يفران من قط يلاحقهما..... جمعهما الخوف وحب الحياة وهذا هو القاسم المشترك بينهما.
توقف العجوز عن الأكل وحدق في عيناي مباشرة قبل أن يضيف قائلاً:
• وحتماً عندما يفر القط أو يغفو.... فإنهما سيفترقان بالتأكيد .
الحق يقال أنى صدمت من نمط تفكير هذا العجوز ، ولم أتوقع أن تكون إجابته على هذا النحو المؤلم والفظ ، بعد كل ما مر بنا معاً ، ظننته أكثر عاطفية في تعاطيه مع الواقع والناس وبالذات في طريقة تعامله معي، لم أتصور تعامله مادياً صرفاً على هذا النحو، إنما لا يهم كل ذلك، ما يهم الآن أن نخرج أحياء من هذا الموقف، - الحق يقال - أني لم أقدم له شيء حتى الآن منذ عرفته بل على العكس ظللت أتلقى نصائحه ومساعدته طوال الوقت إلا أن رده الأخير ترك أثراً سيئاً في نفسي جعلني أغمغم بعمق :
• معك حق .
إكتفيت من طعامي وتراجعت إلى الخلف مسنداً ظهري للجدار فيما ظل العجوز يلملم بقايا الطعام ويعيد لفها بأوراق الصحف ويرميها في أحد الأركان ،كان الظلام قد أسدل أستاره تماماً على كل الأنحاء وبدأت أصوات إطلاق النار والإنفجارات البعيدة تخف وتيرتها شيئاً فشيئاً، وتناهى إلى مسامعنا صوت مذياع يأتي من حراسة بوابة الحي الجامعي إنها الـ bbc البريطانية أستطيع أن أميز صوت طاقم الإذاعة ، ساد الصمت بيني وبين العجوز لوقت أحسبه طويلاً ظللنا نستمع صوت المذياع الذي راح يعلو وينخفض بتتابع عشوائي ثم لم يلبث أن يخبو تماما .
بدء الباعوض يملأ المكان وأحسست بالأجزاء المكشوفة من جسدي تلتهب ،وتوالت صفعات يدي على مواطن الألم كمحاولة مني أن أخفف من أعداد الباعوض الذي يهاجمني فيما ظل العجوز هادئاً وجامداً، فسألته بحنق:
• ما هذا الباعوض إنه لا يطاق ... هل أشعل ناراً ؟ حتماً الدخان سيطرده ، لن أستطيع النوم هكذا.
أجاب العجوز ببرود وهو يتطلع عبر إحدى النوافذ إلى الأفق البعيد :
• أشعل ناراً .... وستجد قذيفة عمياء طريقها إليك حتماً .
ساد الصمت لثوان ظللت أفرك أذناي ويداي بألم وعصبية،عاد المذياع للعمل في الخارج كانت موسيقى لفيروز، أو بالأصح أغنية لفيروز، لم أستطع أن أتبين

كلماتها ، لكن البصمة الرحبانية واضحة الملامح على الإيقاعات التى كانت تعلو وتنخفض على ايقاع الريح لتبدو وكأن الريح تنثرها هنا وهناك.
وجدت نفسي أشق طريقي عبر سُلم يعلوه الحُطام وتفوح منه رائحة البول والفضلات البشرية على نحو لايطاق ،وصلت إلى سطح البناية المحاط بسور يصل إرتفاعه إلى مستوى الرأس تقريباً، ملأت صدري بالهواء البارد النقي ووجد الهدوء طريقه إلى نفسي وأنا أتطلع إلى السماء المطرزة بالنجوم والي الأفق البعيد إقتربت من الجدار وبدأت أتطلع نحو المدينة الغارقة في الظلام تماماً ،عدى بعض الحرائق هنا وهناك ،كان الظلام يلف الأنحاء كلها ،و لا دليل على وجود حياة هنا فقد بدت المباني متشحة بالظلام والصمت لتبدو لمن يراها من حيث أقف وكأنها شواهد لقبور أرتصت إلى جوار بعضها البعض، حتى حواجز التفتيش التي أشاهدها من هنا غير مضاءة على الإطلاق و إكتفى أفرادها بوضع علامات فسفورية تحذيرية على بعد بضعة أمتار منها وربما تفرغ أفرادها إلى شرب الشاي ولعب الورق خلف متاريس الرمل.
ذات المشهد يتكرر في كل زاوية أجول فيها بنظري ،عدت إلى الأسفل ،لأجد العجوز في ذات المكان الذي تركته وذات النظرة الشاردة لم تفارق ملامحه، دس العجوز يده في جيب جلبابه ورمى نحوي بمغلف بلاستيكي صغير، التقطته وشرعت في تفحصه فجاء صوت العجوز بارداً وخاملاً وهو يشير نحوي بفتور:
• إدهن أجزاء جسمك المكشوفة بهذا، سيطرد عنك الباعوض، وستستطيع أن تنام.
أنهى العجوز عبارته واستلقى على الأرض مديراً ظهره لي وما هي إلا ثوان مرت حتى تعالى شخيره في المكان.
ظللت أنقل بصري بين العجوز النائم على الأرض وبين المغلف الصغير في يدي وشرعت في دهن أجزاء جسمي المكشوفة بمزيج زيتي ذو رائحة عطريه هادئة وما إن فرغت حتى وضعت حذائي كوسادة واستلقيت على الأرض.
كان صوت المذياع ما يزال يتناهى إلى مسامعي مصحوباً بأصوات أفراد حراسه الحي الجامعي وتارة بأصوات محركات سيارات تأتى وتغادر، لا أدري كم مضى من الوقت وأنا على هذه الحال،لكن ما يهم في هذه اللحظات بالنسبة لي ، أني لم أعد أسمع صوت باعوض واحد يقترب ،أغمضت عيناي بعد ان رشقت العجوز بنظرة أخيرة وأنا أغمغم في نفسي :

• يا لهذا العجوز .
شعرت ببرودة الجو ، مددت يدي في حركة لا إرادية أبحث عن ما يغطيني ،فاحتكت يدي بالحصى والتراب ، فتحت عيناي بصعوبة ، اعتدلت جالساً وأنا أحاول أن أستوعب الموقف،ظلت عيناي تدوران في المكان لثوان على غير هدى، ثم تناهى إلى مسامعي صوت همهمة خافتة من أحد الأركان، نهضت من نومي وأنا أفرك بحرقة خطوطاً حمراء غائرة على جبيني صنعتها وسادتي ،التي لعب دورها حذائي الجلدي ، ووفر لي بذلك المقوم الوحيد من مقومات النوم الاساسية للبشر، نقلت بصري نحو مصدر تلك الهمهمة ،كان العجوز قد فرغ من صلاة الصبح ، وجلس في مصلاه يهمهم بأدعية وأذكار مستخدماً عقل أصابعه في إحصائها.
ظل الخمول يخيم على ذهني وجسدي رغم أني نلت قسطاً وافراً من النوم إنما يبدو أن وضعية النوم الغير مريحة قد تؤثر سلباً على إسترخاء الجسد وصفاء الذهن.
جميل أن أرى شخصاً يبدأ يومه بهذا الذل والإنكسار للخالق، وبهذا التوكل والرغبة في البقاء تحت رعاية اللّه ، فعلاً هذا العجوز أذهلني لمرات عديدة جعلتني عاجزاً عن رسم صورة محددة و واضحة لشخصيته.
نفضت كل هذه الأفكار عن ذهني وقمت أتوضأ من قنينة ماء بلاستكية متوسطة لا أدرى من أين أتى بها العجوز وما هي إلا لحظات إلا وفرغت من أداء الصلاة، إلتفتُ نحو العجوز الذي كان يحدق في الخارج من أحد الثقوب على الجدار، سرت نحوه بحذر وأنا أتطلع نحو الأفق ،كانت خيوط الضوء الأولى قد بدأت تشق عتمة الليل، وبدأ الظلام يلم أستاره ببطء نقلت بصري نحو بوابة الحي الجامعي كان أفراد الحراسة يبدلون مواقعهم مع آخرين يستقلون سيارة جيب مكشوفة .
كانت الأضواء مازالت مضاءة في الحي بأكمله، وضع العجوز كفه وسط ظهري والتفت نحوي باسماً وهو يقول :
• صباح جميل.....، ما رأيك هل ننطلق الآن؟
كان الجو بارداً ومنعشاً وبدت أصوات العصافير تملأ المكان لتبعث شعوراً في النفس بأن كل شيء على ما يرام هززت رأسي موافقاً ورحت أرتدي حذائي وأعدل من وضعية ثيابي وشعري وغادرنا المبنى المتهالك سرنا بمحاذاة سياج الأسلاك الشائكة يفصلنا عنها شارع إسفلتي ومسافة تربو على المئتي متر كنا نسير في أرض نمت فيها النباتات والأعشاب بشكل ملحوظ وكثيف؛ كان أفراد

حراسة الحي الجامعي يراقبون خطواتنا باهتمام بالغ تجلى ذلك في إشارات أيديهم وتحركاتهم العصبية كما أحسسنا بحركة كاميرات المراقبة المثبتة أعلى السياج الشائك وهى ترافقنا في خطواتنا .
كان العجوز يسبقني بعدة خطوات وكنت أتبعه وأنا التفت حولي بحركة غريزية .
قال لي بأنفاس لاهثة وهو يشد الخطى :
• إن ظللت تدير رأسك في كل مكان بهذه الطريقة فستجذب أنظار الجميع بل ورصاصاتهم الينا .
سألته وأنا أحاول اللحاق به :
• هل لديك وجهة محددة ؟
تجاهل سؤالي ورد على متسائلا :
• هل تحمل أوراقاً رسمية، بطاقة شخصية، عائلية ، جواز سفر، بطاقة جامعية، أي شيء يثبت شخصيتك؟
أجبته بثقة وأنا أتحسس جيب بنطالي :
• نعم لدى ولماذا تسأل ؟
التفت نحوي وعلى شفتيه إبتسامة ساخرة دون أن يجيب وتابع مسيرته وأنا أحاول أن ألحق بخطاه،
كان إمتداد الحي الجامعي كبيراً على عكس ما توقعته إستمرينا في قطع الطريق بمحاذاة الطريق الإسفلتي دون توقف وعلى الجانب الأخر كانت الأبنية ترتص بجوار بعضها البعض وقد نخرتها القذائف وسيول من الرصاص لتصبح بطبيعة الحال سكن أشباح؛ بدا مشهد العمران بهذا النسق يوحي وكأن نهاية المدينة هنا على مشارف الحي الجامعي قطع حبل أفكاري صوت العجوز قائلاً وهو يلوح بكفه على غير معنى :
• قبل عدة أشهر كانت هذه نقطة تماس ساخنة بين المسلحين الذين يأتون من عمق هذا الوادي وبين قوات الجيش، وبصفقة لا أحد يدري ما مضمونها بين الجيش والمسلحين تم تحييد هذه المنطقة من الأعمال العسكرية للطرفين .
أنهى عبارته وهو يقفز داخل خندق طويل وعميق بني للأفراد ورحنا نشد الخطى داخل الخندق الذي تجمعت فيه مخلفات الحرب من خوذ عسكرية وموانع حديديه وأسلاك شائكة وأشياء كثيرة لم أستطع إحصائها ولكنى بالتأكيد تعثرت

بها ،
وجدت نفسي ومع كل خطوة أخطوها امرر كفاي على جداري الخندق الترابي ، أرواح كثيرة أزهقت هنا بين مدافع ومهاجم.
أجساد مزقتها الرصاصات واختلطت دمائها و أشلائها بتراب هذا الخندق، ترى أي شعور ذاك الذي يسبق الموت؟ وأي ألم تركه من قضى هنا لذويه؟لابد وأن هذه الجدران الترابية إحتضنت أمنيات ودموع و آلام من كانوا هنا لتكون وعن غير قصد الشاهد الأخير وربما الوحيد لما حدث هنا .
لا أدرى أي شعور يعتري القاتل وهو يطلق رصاصاته القاتلة هل هذا السلوك تعبير عن حقد أعمى يسكن نفسه تجاه كل ما هو حي ويسير بعكس الاتجاه الذي يريده؟أم أن هذا السلوك هو محاولة يقوم بها للتمسك والحفاظ على حياته وحياة من يحب وبقائه معهم ؟ فلو لم تصب رصاصاته هدفها لتحول القاتل إلى لعب دور الضحية ولذوى كل أمل له بالعودة إلى البيت ليعانق من يحب ،كما لا أدرى ماذاك الشعور الذي يعتري القتيل وهو يتلقى الرصاصات القاتلة، هل يا ترى تمنحه تلك الرصاصات ولو أجزاءً بسيطة من الثانية تسمح له باستعراض خاطف لوجوه وأصوات من يحب ؟التي في اعتقادي أنها لم تفارق مخيلته أبداً ،أم أن الرصاصات تغزو جسده بوحشية فظه معلنة أن وقت الرحيل قد حان ،وبأنه لم يعد في رصيد أنفاسه مايكفي للشعور بالألم ،أو لاستعراض أطياف من أحب، في كلا الحالتين ورغم وجود ذلك الفارق الكبير بينهما إلا أن صورة الأهل والأحبة تظل هي القاسم المشترك بين الحالتين ، و مهما كان للبعد الإنساني أي لمسات على المشهد والشخوص هنا ، لكنى على ثقة بأن القاتل والمقتول قتلى أصلاً في حساب الإنسانية والدين .
مازلت أسير لاهثاً كالمسحور خلف العجوز وذهني يموج بآلاف الصور للقتلى والجرحى ودوي صرخات ألم ورعب واستغاثات الجنود تصم أذناي، بدأ شعور عميق بالدوار و الاختناق يحاصرني جعل الطريق أمامي تتموج على نحو حفز قرحة معدتي فبدأت وتيرة الألم و الغثيان تتصاعد ، فلم أجد بداً من التوقف والانحناء وأنا أمسك بركبتاي لاهثاً.
توقف العجوز وأقترب منى ووضع كفه على رأسي برأفة وقال بصوت دافئ :
• لا عليك يا بني كدنا أن نصل ، لم يبقى سوى القليل.
إعتدلت وأخذت أملأ صدري بالهواء وأفرغه بسرعة حتى شعرت بالهدوء والقدرة

على مواصلة المسير،أمسك العجوز بيدي وجذبني إلى الأمام قائلاً برفق :
• تقدم في المقدمة فأنت تحتاج إلى الهواء النقي، فالغبار الذي خلفته خطواتي سبب لك كل هذا هيا تقدم.
دفعني إلى الأمام على الرغم من أنى حاولت الاعتراض إلا أنه أشار لي برأسه مشجعاً فلم أملك سوى أن أخطو عبر الخندق عدة خطوات حتى تناهى إلى مسامعي صوت العجوز وهو يقول محذراً:
• كن حذراً، لا تخرج رأسك خارج الخندق مهما حصل فلابد أن هناك قناصاً في الجوار وقد إنتظر طويلاً لكي نغادر المنطقة التي توازي الحي الجامعي ليطلق رصاصاته، إنحني وحتى إزحف إن تطلب الأمر ذلك.
التفتُ إليه مستغرباً من حديثه فقد كان الخندق شبه مستو ويحافظ على عمق واحد منذ أن دخلناه، ربما كان حديثة من باب التحذير فقط هذا ما دار في رأسي،وما هي إلا بضع خطوات حتى بدأ الخندق يضيق ويقل ارتفاعه شيئًا فشيئاً بفعل تهدم جدرانه وإنهيار السواتر الترابية من على حوافه لتعكس إنطباعاً بأن معارك طاحنة دارت هنا ذات يوم ومع كل خطوة كنا نتقدمها كنا ننحني أكثر فأكثر إلى أن بدأنا بالزحف على الأرض أمسك العجوز بقدمي فجأه وقال بصوت خافت:
• حافظ على هدوءك ولا تحاول إصدار أي صوت مهما كان بسيطاً إستمر بالزحف بعد بضعة أمتار ينتهي الخندق وسنبدأ بالزحف يميناً نحو عمق الوادي هيا.
أنهى عبارته بالضرب على قدمي محفزاً ،وواصلنا الزحف حتى خرجنا من الخندق على الرغم من أن معالمه إختفت منذ فترة وقد أصبحنا نزحف في بطن الوادي أدركت ذلك من نوعية التربة التي تمتلئ بالحصى والشجيرات الصغيرة الشائكة التي أعطتنا بيئة ملائمة للإختباء، وإن كانت مؤلمة .
إستمرينا بالزحف حتى وصلنا أسفل هضبة متوسطة ضرب العجوز قدمي بكفه هامساً:
• إتجه نحو ذلك المرتفع الترابي.
واصلت الزحف ولم أكد أصل حتى سمعت صوت العجوز لاهثاً يقول بنبرة تنم عن إرتياح :
• أصبحنا الأن بأمان .

إستلقيت على ظهري فارداً ذراعي إلى جواري وأنا ألهث محدقاً في السماء الزرقاء فيما جر العجوز جسده المكتنز ليسنده على المرتفع الترابي وهو يلهث ويسعل بشدة وراح ينفض التراب عن ثيابه وينتزع الأشواك من كفيه وساعديه، نهضت وإستلقيت إلى جواره فأشار بيد متعبة نحو الحي الجامعي الذي بدا بعيداً للغاية ولدرجة أدهشتني وقال ًوهو يحاول السيطرة على أنفاسه المتلاحقة :

• إنظر إلى المسافة التي قطعناها، إنها فعلاً طويلة وشاقة ومحفوفة بالمخاطر تستطيع القول أننا عبرنا من بين فكي الأسد لكني لم أشأ أن أثير مخاوفك حتى لا يعمى الخوف بصيرتك ويشل حركتك فتلفت الأنظار إلينا أنظر هناك.

أشار الى بعض المبانى المطلة على الحي الجامعى وقد بدت من بعض أجزاءها إنعكاسات عديدة لضوء الشمس على أسطح مرايا صغيرة على ما اظن، التفتُ نحو العجوز مستفسراً فتابع قائلاً:

• ذلك إنعكاس ضوء الشمس على العدسات المقربة سواء لبنادق القنص أو لمناظير التقريب وهذا يعنى أن الجميع كان بإنتظار أن يطل أحدنا أو كلانا برأسه ليؤدي أحدهم عمله ، إنما لا تقلق نحن الآن في منطقة آمنة كلياً عن مرمى رصاصاتهم كل ما يستطعيون فعله مراقبتنا على هذا النحو المكشوف الذي تراه .

أجبته ساخراً وأنا أنتزع بعض الأشواك من ساعداي :

• منطقة آمنة كلياً!! أنحن على مشارف الحي الأمريكي أم الأوربي ؟

إلتفت العجوز نحوي وقهقه ضاحكاً قبل أن يرد بسخرية لاذعة :

• لا هذا ولا ذاك وإلا لكنت صادفت حشوداً من القوات ونقاط التفتيش وغابات من الأسلاك الشائكة، إنما نحن على مشارف إحدى مدن الصفيح .

سألته مستغرباً :

• مدن صفيح ؟!

أجاب بذات اللهجة الساخرة :

• نعم ..... فهؤلاء الطبقة لا يشكلون أي أهمية لطرفي الصراع وليس لديهم ما يجعل الآخرين يطمعون فيهم ويتصارعون لبسط نفوذهم عليهم، فشبابها وأطفالها ونسائها مشغولون بهموم لقمة العيش وليس لديهم الوقت للخوض في الصراعات السياسية المسلحة ، لذا فمدينتهم أكثر أمناً من أي منطقة على أرض هذا الوطن .

رفعت حاجباي في دهشة واستغراب وسألت العجوز بجدية :

• لدي سؤال حيرني.....،أيمكن أن تجيبني عليه بصدق ؟
ارتسمت على وجه العجوز ابتسامة صفراء وهز رأسه إيجاباً فتابعت حديثي قائلاً:
• كيف عرفت بأمر القناص في ذلك المبنى؟
إلتفت إلى بجدية فبدا وكأنه يلقى محاضرة قائلاً بزهو:
• لا تثق في كل من يقابلك دفعة واحدة ،لابد وأن تحتفظ بهامش بسيط للشك وبهامش آخر للحذر وأن تربط مابين الكلمات والتفاصيل الأخرى وإن كانت صغيرة في شخصية من تقابل، فمثلاً حديث ذلك الرجل وكذا تدخينه للشيشة بذلك الشكل المريب ، وكذا إقامته في ذلك المبنى المدمر وفى تلك البيئة الرطبة أثارت الشكوك في رأسي ، بأسئلة بسيطة وذكية إستطعت أن أنتزع أعترافاً منه بعد أن رسمت صورة مسبقة و كاملة عن شخصيته وإستنتجت مغزى تصرفاته معنا وما يمكن أن يصدر منه ، دعني أقول لك شيئاً كان الرجل يعاني من حالة إكتئاب حادة جراء بقاءه وحيداً في ذلك المبنى لفترات طويلة دفعه ذلك إلى معاقرة المخدرات وتدخينها على ذلك النحو ،ألم تلاحظ تلك البقع السوداء على ساعديه والتي خلفها تكرار الوخز،وتلك الهالات السوداء أسفل عينيه التي تجعلك تستنتج أن ذلك الرجل يعانى من حالة ارق واكتئاب مزمنتين، فطنت إلى أن ذلك الرجل بحاجة إلى أحد يتحدث إليه ليبدو الأمر وكأنه يحاول أن يستعيد ما أفل من شعوره الاجتماعي أو على الأقل أن يشعره ذلك بأنه ما زال كائناً حياً، وبالتأكيد كان من حسن حظه أنه قابلنا، كان سيتحدث معنا لبعض الوقت حتى يزيح أكواماً من الإكتئاب غلفت قلبه ثم يدلنا على طريق للخروج فيما يطل هو بعد ذلك من أي نافذة ليؤدي عمله كقناص محترف.... أظن أنك فهمت الأن.
كانت عقلية العجوز جبارة بحق ألمت بتفاصيل صغيرة لم ألحظها أبداً ولم تلفت إنتباهي إطلاقاً وحللتها لتخرج بنتيجة وحلول أنقذت حياتنا في نهاية المطاف .
على أي حال يبدو أن مدرسة الحياة مدرسة عظيمة لمن أحسن إستيعاب دروسها،
التفتُ مبتسماً نحو العجوز قائلاً له بإعجاب :
• بالتأكيد فهمت.... فهمت.
سرنا بضع أمتار نحو ما وصفه العجوز بمدينة الصفيح.... كانت السماء غائمة وبدت بشائر المطر تتساقط علينا على هيئة رذاذ خفيف وبدت المدينة عبارة عن أكواخ من الصفيح والخشب معظمها غطاها الصدأ وقد تراكمت على الأسطح

قطع من الخشب وإطارات السيارات التالفة وعلب الماء والزيت الفارغة وعشرات من الأغراض التي لا يمكن أن تحصيها، إجمالاً كان الزحام شديداً هنا والطرقات عبارة عن ممرات عشوائية تخترق الاحياء.... القمامة في كل مكان ... مياه الصرف الصحي تنضح أمام كل منزل والضجيج سمة بارزة هنا.
حقيقة كان الفقر والعوز يضع بصمته على كل شيء هنا ، على الوجوه وعلى الأجساد والكلمات... وقد يدفعني الجنون لأن أقول حتى على النظرات... لا أدري كيف ذلك وإنما ما أعرفه أنى لم أصادف أبداً هذا الصنف من النظرات طيلة حياتي.
التفتُ نحو العجوز متسائلا وما زالت عيناي تدوران في المكان :
• هنا سنقضي يومنا....؟!! أفضل أن نبحث عن مكان أخر .
رد العجوز وهو يحث خطاه وكأنه يعرف المكان عن ظهر قلب :
• لي صديق قديم هنا.... دعنا نلقي عليه السلام ثم نغادر .
لم أعلق على أجابته كنت مشدوهاً بما أشاهده من غرائب هنا ومن ذلك الكم الهائل من الصراخ والموسيقى العالية وجداول مياه الصرف الصحي.
وصلنا إلى كوخ من الصفيح طرق صديقي العجوز بابه بقوة وهو يبادلني نظراته ويخفي شبح إبتسامة غامضة خلف شفتيه، فتح الباب كهل أفريقي الملامح ظل يحدق في وجهي لحظات وقد ارتسمت على وجهه علامات الغضب والتذمر وهم بقول شيء ما ولكنه تراجع عندما رأى صديقي العجوز فإرتسمت إبتسامة عريضة على وجهه وهو يصافح صديقي العجوز بحرارة قائلاً بود:
• أهلاً وسهلا أهلاً وسهلاً أين أنت أيها العجوز كل هذا الوقت؟
هم العجوز بقول شيء ما إلا أن صاحب الكوخ جذبه من يده نحو الداخل وهو يردد عبارات الترحاب الحار.
غابا في الداخل لحظات ثم أطل وجه صاحب الكوخ بإبتسامة صافية وهتف بي مصافحاً:
• تفضل يا بني.... لماذا لم تزل في الخارج؟ أهلا وسهلا بكما .
جذبني بذات الطريقة نحو الداخل كان الكوخ عبارة عن غرفة واحدة فسيحة تناثرت داخلها المحتويات بعشوائية وتزاحمت داخلها الأجساد والأصوات والروائح دلنا العجوز صاحب الكوخ على مكان جلوسنا والتقط جهاز التحكم من على سطح جهاز التلفزيون وجلس إلى جوارنا وعلى وجهه إبتسامة عريضة وهو يقول :

• ألف مرحباً أين أنت يا رجل طوال هذه الفترة.... لم تفكر في زيارتنا ولو مرة؟!

قهقه صديقي وقال بود:

• المعذرة يا أخي هذا حال الدنيا لكن يعلم الله أني دائما أذكرك بخير وأذكر الأيام التي قضيناها معاً أيام لن تنسى ولا يمكن أن تعود.

زفر صاحب الكوخ بحسرة وعلى وجهه نظرة شاردة وكأنه يستعيد تلك الأيام:

• فعلا أيام جميلة... ليتها تعود.... لكنها للأسف لن تعود.

بادره صديقي قائلاً:

• كيف هي الأوضاع هنا ؟... ألم يصلكم شيء مما يحدث في الخارج؟

لوح صاحب الكوخ بكفه بحركة نافيه وهو يقول:

• بعض الرصاص الطائش يتساقط علينا بين الحين والأخر ليودي بحياة النساء والأطفال أو يحول سطوح منازلنا كما ترى إلى غربال حقيقي ليكلفنا ذلك الكثير من الوقت والجهد في إصلاح ما تلف ، وأحياناً هذا الشر المستطير يحمل لنا بعض الرزق والخير تستطيع القول ... وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

ضحك صديقي بإستغراب وهو يقول :

• قل صدق الله العظيم يا رجل لقد قرأت آية كريمة، إنما كيف يأتي الشر إليكم بالرزق والخير؟

أجاب صاحب الكوخ وهو يقول بنشوة واضحة:

• صدق الله العظيم ...لم أنتبه لذلك... هل تريد أن تعرف كيف؟ يحدث بعض الأحيان أن تقوم بعض الشخصيات النافذة بزيارتنا ترافقها عربات تحمل الكثير من الدقيق والزيت والتمر والثياب ويرافق ذلك عروضاً سخية بالوظائف والأجور المجزية ووعوداً بتوفير الخدمات للمنطقة ليس هذا من باب الصدقة وليس كذلك من باب الرأفة بنا كل ذلك في مقابل أن ينخرط أبنائنا في بعض التنظيمات المسلحة التابعة لهذه الجهة أو تلك وأمور أخرى يطول الحديث عنها .

رد عليه صديقي قائلاً:

• وكيف تتعاملون مع هذه الشخصيات التي تأتي إليكم؟

ضحك صاحب الكوخ وهو يرد:

• لا شيء.... نأخذ منهم الطعام والثياب وبعض المال ونرسل أبنائنا معهم

ليلتحقوا في معسكرات التدريب وما إن تنتهي فترة التدريب ويتم تسليمهم قطع السلاح حتى يفروا بها إلي غير رجعة.
ضحكت وضحك صديقي وهو يقول :
• بهذه البساطة ؟!!وهل يسكت عن تصرفهم هذا؟
أجاب صاحب الكوخ بسخرية وهو يلوح بكفه:
• يا رجل ما الذي يمكن أن يفعلوه بنا أكثر مما نعيشه نحن أصلاً منذ خلقنا وحتى يرث اللّه الأرض ومن عليها؟.... تخرج حملات للبحث عن الفارين وقطع السلاح .... فيتم نبش هذه الأكواخ وقلبها رأساً على عقب ،وفي كل مرة يصلون إلى ذات النتيجة .... لا سلاح ولا مجندين فارين ولا شيء يمكن أن يُأخذ من أسرهم كمقابل لما تم تقديمه لهذه الأسر وأبنائهم،تكررت هذه الحالات إلى أن وصل الجميع إلى قناعة تامة بأن يتركوننا وشأننا .
تعالت وتيرة ضحكاتنا فبادره صديقي قائلاً:
• وماذا يحدث بعد ذلك؟
أجاب صاحب الكوخ بذات السخرية :
• لا شيء نظل نأكل ونشرب أشهراً مما قدمه هؤلاء الحمقى لنا.... والسلاح يتم بيعه والإستفادة من ثمنه لشراء المأكل والمشرب... أليس هذا برزق وخير جاء به شياطين الشر؟ ...وعلى أي حال فالمماحكات والحروب السياسية ترف يتعاطاه فارغو الرؤس من الأثرياء الذين يحولون الناس بأموالهم إلى بيادق عمياء مسلوبة الإرادة تطحن بعضها بعض على رقعة شطرنج كبير يسمونها باعتزاز مقيت الوطن .
صمت صاحب الكوخ لحظات ظل خلالها مطرقاً بنظره نحو الأرض ليتابع قائلاً:
• الحقيقة التاريخية التي يتعامى عنها هؤلاء أننا مكتوب علينا أن نقضي العمر في مطاردة لقمة العيش منذ أن نولد وحتى نموت ،فلا إهتمامات أخرى يمكن أن تحل محل هذه الحقيقة التاريخية ، فوجود أبنائنا معناه إستمراريتنا في الحياة على أي وجه كان فأية لقمة يرسلها أبنائنا العاملين في المدن وإن كانت ممرغة في التراب تجد لها حتماً مكاناً في حياتنا هل تدركون لماذا؟ لأننا لا نستطيع الحصول على أفضل منها ولذا فديمومتها بترابها خيرُ وأكثر رحمة من وقع سياط الجوع، فكيف باللّه عليكم سنسمح لأبنائنا بأن يلتحقوا بمعسكرات أولئك السراق.

شعرت بطوفان كبير من الأسى يجتاح كياني فهذه المرة الأولى في حياتي التي أحتك بها بهذه الطبقة من الناس وهى أيضاً المرة الأولى التي أستمع إلى أحد أفراد هذه الطبقة وهو يتحدث بهذه الصراحة وهذا الوضوح ليغدو هنا الجوع والفاقة هو بداية المشكلة وختامها .

إبتسم صديقي إبتسامة مصطنعة بدت وكأنه يحاول أن يغير مناخ الحديث ليقول مازحاً:

• ولكن أيها اللئيم أليس هذا نوعاً من الاحتيال؟

ضحك صاحب الكوخ ضحكة ساخرة وهو يجيب بنبرة فلسفية :

• أي إحتيال يا رجل ؟!هؤلاء لا يضعون أي إعتبار للملايين التي ينفقونها في شراء القذائف والصواريخ التي تلقى على الأحياء السكنية يومياً وبالمئات لتحرق الأخضر واليابس كما لا يأبهون لتلك الملايين التي تُدفع مرتبات لجيوش من القتلة وقطاع الطرق... فلا تقلق حيال ما نأخذه منهم لسد رمقنا فلعل اللّه يعفو عنا فهو يعلم فاقتنا ويكتب لهم به أجراً عنده ألم تسمع بالحديث الشريف القائل (يؤجر المرء رغم أنفه) .

قهقه صديقي ضاحكاً وهو يقول :

• لك اللّه أيها الخرف ما زالت أحاديثك الفلسفية كما كانت لم تنل منها كل هذه السنوات ....هل تذكر ما جرى في المعهد التقني ؟

ضحك صاحب الكوخ بعمق وهو يقول :

• يا ه ....أما زلت تذكر؟!

أجاب صديقي وهو ما يزال يضحك:

• وهل يمكننا أن ننسى ذلك اليوم؟

ظللت أنقل بصري بينهما وأنا أجهل تماماً ما يتحدثون عنه فأمسك صديقي العجوز بركبتي وهو ما زال يضحك قائلاً لي :

• كنا مازلنا فتياناً يافعين.... وحدث أن إلتحقنا بمعهد تقنى... كان عمك خليل(يقصد صاحب الكوخ) حينها من كبار المثقفين في الوسط الطلابي وحدث أن وجدنا في الشارع بالصدفة كما كنا نعتقد حينها (الكتاب الأخضر) للمفكر (معمر القذافي) أخذ عمك خليل الكتاب ووضعه ضمن كتبه...وفى فترة الإستراحة في المعهد كنا نجتمع في مطعم المعهد مع جمع من الطلاب .... ودون أي مقدمات وجدت عمك خليل يرتقي إحدى الطاولات ويفتح الكتاب

الأخضر ويبدأ بالقراءة منه بطريقة إستعراضية وحماسية جمعت حوله المستمعين من الطلاب الذين راحوا يختمون كل فقرة يقرئها بالهتاف والتصفيق... ولم يكد عمك خليل ينزل من مرتقاه حتى إنقض عليه مجموعة من الشباب وإنهالوا عليه ضرباً... حاولت أن أدافع عنه فنالني منهم ما نالني، المضحك في الأمر أن ذلك لم يكن نهاية المطاف.

ضحك الحاج خليل وهو يكمل رواية صديقي العجوز قائلاً :

• وما كدنا نغادر المعهد بثيابنا المقطعة وبجروحنا النازفة حتى طاردتنا مجموعة من الشباب بالحجارة والعصي لا ندري من أين جاءوا وظلوا يطاردوننا في شوارع المدينة إلى أن وصلنا أمام مبنى المخابرات فلم نجد بداً من الدخول من باب المبنى نحاول أن نحتمي من عربدة وجنون المطاردين وذلك على إعتبار أن مبنى المخابرات كان أقرب للمعهد من أي مقر لجهاز أمنى اخر وكان بالتأكيد سيشكل ملاذاً آمناً لنا .

كان صديقي العجوز يضحك بشدة وهو يسترجع المشهد على وقع كلمات الحاج خليل وأردف متابعاً الحديث قائلاً:

• و لك أن تتصور يافتى ما إن دلفنا باب مبنى المخابرات حتى تفاجأنا بأن الجميع كان بإنتظارنا بحفلة استقبال لا تخطر على بال اعتى المجرمين وبعد حفل الاستقبال تم اقتيادنا إلى قسم التحقيقات في مبنى المخابرات وبعد التحقيق معنا عشرات المرات تم حبسنا ثمانية أشهر و أخلي سبيلنا بعدها و من يومها حرمنا أن نلتقط أي شيء من الأرض، وحرمنا أن نجمع الناس حولنا لأي سبب كان، يا رجل لقد ضربنا ضرب حمار وليس أي حمار ....بل ضرب حمارٍ دخل مسجداً .

على الرغم من أني تأثرت من القصة التي سمعتها إلا أنني وجدت نفسي أضحك معهم من أعماق أعماق قلبي فكان لسان الحال يحكي أننا وقعنا في المضحك المبكي.

قال لي صديقي وهو يرمق الحاج خليل بنظرات ود:

• عمك خليل.... صنف نادر من البشر لا يُمل من الجلوس معه أو حتى من صحبته فهو من الصنف الذي يترك أثراً رائعاً وجميلاً في نفسك يكبر هذا الأثر ويتجدد بمرور الأيام ولا يمكن أن يخبوا في أي حال من الأحوال ،هكذا كانت فترة شبابنا مسلسل طويل من المرح والضحك لا تجد له نهاية أبداً.... ولذلك لم

أستطع أن أتخلص من محبة هذا الخرف فمهما كُنت بعيداً عنه وعن لقائه أجد نفسي لا إرادياً أشق طريقي إليه.
ضحكت و هززت رأسي موافقاً في حين التقط الحاج خليل جهاز التحكم وراح يعبث بأزراره وقال بنفاذ صبر وهو يلقى جهاز التحكم بعيداً:
• لا إشارة.... الأمطار بدأت في الهطول.... كنا نود آن نعرف أخر الاخبار .
لم يكد ينهى عبارته حتى بدأ هطول المطر بغزارة وتعالى صوت هطول المطر على سقف الكوخ المبنى من الخشب والصفيح ....أسرع الحاج خليل وأخرج غطاء بلاستكيي دثر به جهاز التلفزيون بعد أن أغلقه على عجل فيما أسرع حشد من أبنائه من مختلف الأعمار نحو الخارج وهم يحملون ماوصلت إليه أيديهم من عبوات و أوان معدنية لتعبئة مياه المطر المنسابة من سطوح أكواخ الصفيح....
غادرنا الحاج خليل بعد أن تجرد من معظم ملابسه حاملاً بيده وعاءً بلاستكياً عريضاً وهو يهتف بصوت عال مخاطباً أحد أبنائه :
• إملأ هذه..... إملأ هذه.
توجهت بالسؤال لصديقي العجوز قائلاً:
• طالما والحاج خليل نال نصيبه من التعليم لماذا لم يتحسن وضعة ولم ينتقل للعيش في مكان أفضل؟
أجاب هامساً وهو يرسل نظراته نحو الحاج خليل الذي وقف بين حشود أطفاله في الخارج :
• كما قلت لك سابقاً الحاج خليل رجل مثقف من الدرجة الأولى ،درسنا معاً في المعهد التقني تخصص كهرباء وحصل على منحة في ذات تخصصه إلى ألمانيا الغربية ،ظل هناك عدة سنوات ليعود حاملاً شهادته وأحلاماً بواقع أفضل له ولأسرته،إنما ليس كل ما يطلبه المرء يناله.
رفعت حاجبي متعجباً وأنا انقل بصري نحو الحاج خليل الذي كان في الخارج وقد إبتل جسده النحيل تماماً وكان على وشك أن يدخل في عراك مع أحدهم فقلت:
• الحاج خليل عاش في ألمانيا الغربية !!!
إبتسم وهو يقول باسماً:
• لا تستغرب يا فتى فالحاج خليل في ذلك الحين تزوج من أجمل فتاة في بون كانت طبيبة بارعة حاول الكثيرون من الطلاب العرب الأثرياء من الدارسين

هناك أن يوقعوها في شباكهم ولكنها لم تكن متيمة سوى بالحاج خليل ومنحته قلبها وحياتها .
إرتفع حاجباي أكثر وأنا أشير بإصبعي نحو الحاج خليل الذي بدا الأن بحق أشبه بهيكل عظمي يتحرك وقلت بإستغراب:
• الحاج خليل !!!!
ضحك وهو يقول :
• نعم الحاج خليل
فسألته بجدية:
• وأين هي الأن هذه الطبيبة الألمانية الفاتنة؟
عاود الضحك وهو يقول:
• أنهى عمك خليل دراسته بتفوق ..... بعد أن رزق بطفله من زوجته (إيرينا) عاد إلى الوطن ليرتب له عملاً ضمن تخصصه ثم يسافر ليحضر زوجته وطفلته ويالیته لم يعد...
إنعقد حاجبي و أنا أسأله بإهتمام :
• ما الذي حصل؟
أجاب قائلاً :
• كان عمك خليل يتوقع أن يستقبله الجميع بالأحضان وبالوظيفة والبيت والراتب المجز ،طالما وقد أنهى دراسته بتفوق ،إلا أن ذلك كان مجرد أوهام تلاشت بمجرد أن غادر سلم طائرة العودة ،فقد إستقبلته في المطار شعبه الاستخبارات الخارجية ،ليتم إحتجازه والتحقيق معه عده أشهر، وبعد خروجه إعتقله الأمن الوطني ليقضي عدة أشهر أخرى دونما سبب واضح، ثم أطلق سراحه بعد مضي ما يقارب العام من الاعتقال، إتجه للبحث عن عمل لكي يستطيع العودة من حيث أتى ،فوجد كل الأبواب موصدة أمامه بقرار مسبق من جهة ما ،مر عام أخر من البحث الشاق ولكن ما من جدوى.... يبدو أن القرار قد أتُخذ بأن يعود عمك خليل في ذات البيئة التى خرج منها، طالت فترة البحث وطالت معها فترة الأنقطاع عن زوجته وإبنته في ألمانيا ، وبمرور الوقت ، لم يجد الحاج خليل سوى أن يطوى تلك الفترة، ليحولها إلى ماض جميل ، أو ربما حلم جميل، صحا منه ليواجه واقعه القاسي ، ويبدأ في العيش بالطريقة التي يريدها له الآخرون ،وهاهو عمك خليل الذي تراه بالنسخة التي أرداها له الاخرون .

بادرته متسائلاً :

• وما سبب الإضطهاد الذي لاقاه الحاج خليل ... ما أعرفه أن بعض الدارسين في الكتلة الشرقية سابقاً كانوا هدفاً لعمليات الإضطهاد الفكري والاجتماعي إنما ما عرفته منك أن الحاج خليل كان من الدارسين في ألمانيا الغربية فكيف تعرض لكل هذا الإضطهاد الغير مبرر؟ ألهذا دواع سياسية مثلاً مرتبطة بموقف الحاج خليل السياسي ؟ أم ماذا؟

أجاب وهو يزفر متحسراً:

• الإضطهاد الذي تعرض له عمك خليل نوع غريب من الإضطهاد يختلف عن أي نمط اخر يمكن ان تكون قد سمعته، كنا نعتقد أنه لم يعد موجوداً سوى على صفحات كتب التاريخ أو ربما في بعض الروايات العربية القديمة لكن الحقيقة التي تفاجأنا بها أن الأمراض الإجتماعية المتوارثة صعب أن يُقضى عليها بين ليله وضحاها أو حتى خلال عقود من الزمن ويستحيل موجهتها طالما وهى مسلحة بالجهل وبجيوش من الأغبياء والحمقى الذين يعتبرون أنفسهم أوصياء على خلق اللّه تحت سماء اللّه وأرضه يقررون من يكون ومن لا يكون ويحددون ما يجوز ومالا يجوز.

إستحوذت كلمات صديقي العجوز على جُل إهتمامي فسألته بإهتمام:

• ما الذي حصل للحاج خليل ماذا تقصد؟

أجاب بنفس نبرة الأسى قائلاً:

• يبدو أن ذلك النجاح المنقطع النظير الذي حققه فرد من هذه الطبقة المطحونة و التي تكاد أن تكون مستعبدة من بقية الطبقات هذا إن لم تكن مستعبدة فعلياً وفي أحسن الأحوال تعيش على ما تخلفه بقية الطبقات من مأكل ومشرب وملبس وتمتهن أحقر المهن التي تأنفها بقية الطبقات ،بالتأكيد أثار هذا النجاح حفيظة بعض الدارسين هناك ومن خلفهم آبائهم من أبناء الطبقات الميسورة والعائلات الكبيرة النافذة في المجتمع وأجهزة الدولة خصوصاً مع إرتباطه بالطبيبة الفاتنة (إيرينا)فبالتأكيد أن ذلك المتفوق القادم من ألمانيا برفقة تلك الطبيبة البارعة لا بد وأن يحتل مكاناً هاماً في أجهزة هذه الدولة الفتية وبالتالى سيعمل على إنتشال طبقة كبيرة من أبناء طبقته المهمشة من مستنقع الجهل و العبودية والضياع ليحتلوا أماكن أخرى في أجهزة الدولة على حساب بقية الطبقات التي تعتبر الدولة وأجهزتها ووظائفها المرموقة إرثاً عائلياً

لا يمس وغير خاضع للتداول خارج إطار العائلة والقبيلة ،لذلك فقد شكل هذا المتفوق الجديد في نظر هؤلاء بداية طوفان أتٍ لا محالة سيغير بذلك الميزان الإجتماعى الذي يرجح كفة طبقة على أخرى منذ عصور وبالتاكيد سيضع حداً لإحتكار تلك الفئات للوظائف العامة، هكذا يا بني يفكر من هم خلف الستار وهذه هي حساباتهم الغبية ،حتماً عرفت لماذا كانت شعبة الإستخبارات الخارجية في إنتظار عمك خليل في المطار ولماذا لاقى ما لاقاه طوال الفترة الماضية.

حقيقةً إعترتني الدهشة وأنا استمع إلى كلمات صديقي العجوز لم أكن أتصور أن الحقد يمكن أن يدفع إنساناً إلى تدمير حياة إنسان آخر و مهما كان المبرر الذي يمكن أن يساق لتبرير ماحدث إلا أنني أجد أن ماحدث للحاج خليل هي عملية إغتيال وحشية بكل ما تحمله الكلمة من معنى أودت بحياة ومستقبل الحاج خليل وأسرته منذ سنوات طويلة ،فلم يتبق من الحاج خليل سوى طيف واهن يطارد هموم الحياة ويعجز حتى عن خلق حلم أو إستعادة حلم مضى فبأي شريعة أو قانون يمكن أن يعاقب هؤلاء القتلة وأي عقاب يمكنه أن يوازي الجريمة التي إقترفوها في حق هذا الرجل وأسرته السابقة واللاحقة .

وأضاف متابعاً:

• هل تعلم من هي زوجته؟

سألته بإهتمام :

• من هي؟

أجاب قائلاً:

• إيرينا جوتانبرج .

بدا الأسم مألوفاً لدى إلى حد كبير فقلت :

• إيرينا جوتانبرج ...يخيل إلى أنى سمعت هذا الأسم من قبل ليس غريباً على أبداً أنا واثق من ذلك.

هز رأسه ايجاباً وهو يقول :

• بالتأكيد قد سمعت هذا الأسم من قبل الدكتورة إيرينا جوتانبرج شغلت منصب الأمين العام للمفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة لأعوام طويلة وتنقلت في مناصب مرموقة في المنظمات الدولية كمنظمة العفو الدولية واليونسكو ولا أتذكر البقية .

فجأة أظلم المكان تماماً.... فقد إنقطع التيار الكهربائي أو بالأصح فقد أوقف الحاج خليل مولد الكهرباء الصغير الذي يغذي الكوخ بالكهرباء وأدخله في أحد الصناديق الخشبية على عجل ربما لحمايته من قطرات المطر التي بدأت تتسلل من الثقوب العديدة المنتشرة على سقف الكوخ ،وما زالت نظرات الحاج خليل تسافر بلهفة نحو الخارج التقط ما تبقى من أوان وراح يمد زوجته وأبناءه بالأوعية التي تطالها يده والتي لا يبدو أن لها نهاية.....حركة الحاج خليل ونشاطه بالإضافة إلى صوت المطر وصرخات الأطفال المرحة ولدت داخلي شعوراً ورغبة قوية في رؤية المطر .

تقدمت نحو الباب لأشاهد ربما سكان الحي بأكمله في الخارج البعض يستحم بثيابه والبعض يجمع الماء والبعض يغسل ثيابه.... كان الأطفال والشباب شبه عراة يتقاذفون الوحل فيما بينهم وقد إكتست صدورهم ووجوههم بهذا الوحل الذي كان قبل هطول المطر مجرى لمياه الصرف الصحي ووجدت نفسي في شبه إغفاءة أستعيد حديث صديقي العجوز في ذهني لأرى ماضي الحاج خليل يعبر أمامي على هيئة صور..صور أحياء بون الراقية بشوارعها وحدائقها ثم صور الطبيبة الشقراء الجميلة وهي تتمايل بافتتان تلتقط صوراً في حديقة غناء برفقة الطالب خليل ثم صور المسؤلة الدولية الهامة وهى تقف أمام حشد من الصحفيين و أجهزة الإعلام تدلي بتصريح ما ، تتسابق وسائل الإعلام إلى تغطيته وبثه، ... وبما وصلت إليه هذه الطبيبة الفاتنة من نجاح على المستوى العالمي ....عدت من إغفائتي لأشاهد ما يفعله هؤلاء القوم هنا تحت وطأة الفقر والعوز وعلى الرغم من تحفظي على أي إبتسامة في هكذا موقف فقد إبتسمت إعجاباً بتلقائية هؤلاء القوم وبساطة تعاملهم مع الأشياء ، دلف الحاج خليل وقد إبتل جسده تماماً وهو يرتجف من البرد قائلاً :

• المعذرة يابنى....ولكن المياه معدومة هنا وقد طالت فترة إنتظارنا للمطر.

عدنا إلى مجلسنا و الحاج خليل مازال يرتجف إثر البلل الشديد الذي أصابه فبادرته قائلاً:

• جفف جسدك يارجل.... سيقضي عليك الإلتهاب.

أجاب الحاج خليل :

•إنها نعمة.... فالمياه معدومة منذ أشهر طويلة لقد تضررت الأنابيب التي تمدنا بالمياه ولم يتم إصلاحها فانتهز اللصوص الفرصة وسرقوا بقية أنابيب الشبكة كاملة

ليتركونا هكذا بدون ماء .
رد صديقي العجوز وهو يبسط كفيه نحو الحاج خليل قائلاً بجدية :
• ولكن الدواء أكثر ندرة هذه الأيام هيا قم و أرتدي شيئاً جافاً يقيك من البرد .
نهض الحاج خليل وغاب لحظات ليعود وهو يرتدي ملابس جافة فبادرته متسائلاً:
• وكيف تحصلون على الماء أن لم تمطر السماء؟
أجاب الحاج خليل وهو يفرك كفيه قائلاً:
• في الحقيقة الدولة لم تقوم بإيصال خدمات المياه إلينا، إنما ومع تزايد أعددنا وزيادة حاجتنا إلى الماء ،قمنا بمد أنابيب من الأنبوب الرئيسي الذي يقع على مسافة خارج الحي إلي جميع مساكن الحي ، وعلى الرغم من خروج عشرات الحملات لإزالة ما فعلناه ،إلا أننا في كل مرة كنا نعاود الكرة حتى سئموا من الخروج وإزالة أنابيبنا ،و ظللنا فترة على هذا الحال نحصل على الماء دون أن ندفع فلساً واحداً ، أما الآن وفي ظل هذه الظروف، نضطر إلى نقل المياه من محطة الضخ الرئيسية على بعد أربع كيلو مترات من هنا ،... فمعظم من يسكن هنا لا يستطيع شراء الماء المباع على الشاحنات ،ولا خيار لنا ،فالحكومة المركزية لن تقوم بإصلاح ماتلف من الشبكة وإستبدال ما سُرق ، فنحن في نظرها لا نحقق لها أي إيرادات تُذكر وأيضاً تستطيع القول بأن لديها إهتمامات أخرى تصرفها عن الاهتمام بنا وبغيرنا على الأقل في الوقت الراهن .
ما كاد ينهي كلماته حتى دوى صوت إنفجار مكتوم على إثره اهتزت ألواح الصفيح بشكل عنيف تدافع أفراد الأسرة نحو الداخل وسط صراخ الأطفال المتواصل الذي تحول إلى بكاء هيستري...
توالت الأنفجارات الواحد تلو الأخر يتخللها صوت إطلاق نيران كثيفة،إستمر العويل والصراخ فيما هدأت أصوات الأنفجارات وتتابعت أصوات إطلاق النار بشكل كثيف.
أشار الحاج خليل لأسرته بالجلوس والصمت حتى أنتهت أصوات إطلاق الرصاص فقال الحاج خليل مخاطباً صديقي العجوز:
• لابد وأنهم يمشطون المنطقة بالأسلحة الرشاشة... يبدو أن هجوماً ما قد وقع وأثار غضبهم.... دعنا من كل مايحدث لقد أعتدنا وأعتدتم على مثل هذا،... إنما لم تقل لي أين أنت طوال هذه المدة؟ ولماذا لم تزرنا؟
ابتسم صديقي العجوزوهو يجيب :

• هي الدنيا ومشاغلها... لا أحد يستطيع أن يتحكم بوقته...إنما مازلت أفاجئك بقدومي كلما سنحت لي الفرصة بذلك.
ثم أضاف وهو يدور ببصره في أنحاء الكوخ متسائلاً :
• أين أبنائك الكبار يا حاج خليل؟
أجاب الحاج خليل متباهياً:
• كما قلت لك سابقاً تستطيع القول أن للشر وإن كان شراً في حد ذاته له أحياناً وجه جميل ، فمثلاً هذه الفوضى المستشرية في البلاد وإنهيار مؤسسات الدولة ، نتج عنها أنواعاً جديدة من التجارة ومن الأعمال ، وكلها بالتأكيد سهلت إلى حد كبير أشياءً كانت تعد من المستحيلات، فمثلاً ابني الأكبر(واصل) بعد مشوار طويل من البطالة ومشوار أخر من العمل الشاق المضني ،استطاع بعدة مئات من الدولارات شراء جواز سفر صومالي من أحد السماسرة وغادر البلاد إلى السويد ،ليستقر هناك منذ سنوات شأنه شأن أبناء الجالية الصومالية الذين يعاملون معاملة خاصة هناك ، وقد ساعدته بشرته السمراء على إتقان الدور والاندماج بين أبناء الجالية الصومالية، آخر الأخبار التي وصلتنا عنه أنه حصل على عمل وسكن جيدين و تزوج هناك من معلمة سويدية ورزق منها بأطفال .
نقل الحاج خليل بصره نحو زوجته وأولاده في ركن الكوخ وأضاف قائلاً بصوت مبحوح ممزوج بالألم حاول جاهداً إخفائه بابتسامة فاترة :
• انقطعت أخباره عنا منذ فترة.... لكني على يقين أن ذلك بسبب انقطاع الاتصالات الدولية وإلا لكان أزعجنا باتصالاته ليل نهار أعرفه ودود جداً وطيب القلب لا تعرف القسوة طريقها إلى قلبه أنا على ثقة بأنه يعمل جاهداً لكي نلحق به للعيش هناك
ضحك صديقي العجوز وبدا وكأنه يحاول أن يغير مناخ الحوار:
• تزوج من شقراء أوربية أوقعها في غرامه بسحر كلماته ....لقد أورثته سحر لسانك أيها الخرف .... أتذكر تلك الطبيبة الفاتنة إيرينا؟
إنتزع الحاج خليل نفسه من دوامة الحزن التي بدأ يسقط فيها متلعثماً بكلمات غير مفهومة ليبدو وكأنه لا يريد الخوض في هذا الحديث في حضرة زوجته وراح ينقل بصره بيننا وبين زوجته التي كانت تنصت إلى حديثنا من مكان ما داخل الكوخ و قد بدأت تزمجر بكلمات غاضبة غير مفهومة فإستدرك قائلاً بصوت عال وبنبرة لا تخلو من الخوف والمكر في آن واحد :

• سألتني عن الآخرين أليس كذلك ؟الآخران يعملان في بيع المحروقات على الخط السريع على مشارف المدينة فكما تعرف أن إنعدام المحروقات أوجد عملاً للكثير من الشباب وعلى الرغم من مخاطر هذا العمل فإن العائد يبدو مجزياً إلى حد كبير فقد إشتريا دراجة نارية للتنقل وكذا هذا التلفاز والمولد الكهربائي والصحن اللاقط للقنوات الفضائية.... إجمالاً الحمد للّه الأمور تسير للأفضل على الأقل بالنسبة إلينا في ظل الأوضاع الراهنة.

فيما ظل يحدق فينا وفي زوجته وهو يحك فروة رأسه الأشيب كطفل أذنب وأساء التصرف إنفجرنا ضاحكين من طريقة تهربه من الحديث عن الطبيبة إيرينا ، إستجمعت قواي وسألته بإنتباه لأخرجه من هذه الحالة:

• مجز!!.... إلى أي حد ؟ وكيف يحصلون على هذه المواد؟

أجاب الحاج خليل بزهو واضح وهو يشير بسبابته نحو البعيد:

• يذهب أبنائي إلى محطة المواد البترولية ويقفون في الصف حتى يملأون عبواتهم البلاستكية ثم يذهبون إلى الطريق السريع لبيعه للمسافرين مقابل أربعة أو خمسة أضعاف سعره الأصلي وهكذا دواليك كلما باعوا ما في حوزتهم عادوا إلى الصفوف واللّه يرسل الرزق .

حدق بي الحاج خليل لحظات قبل أن يتابع حديثه بمكر قائلاً :

• إنما لهذا العمل مخاطر عديدة تجعل حياتك على المحك، فمثلاً هناك من الباعة من يقوم بخلط المواد البترولية بمواد أخرى كالماء والزيت لغرض الغش والربح السريع لينتهي بهم المطاف جثثاً هامدة على أرصفة هذه الطرق ،وآخرين يتم دهسهم عنوة من قبل سائقين لا يستطيعون دفع ثمن هذه العبوات ،وآخرين يتعرضون للسرقة والقتل، كثير من شباب الحي قضى على هذا النحو أخرهم قضى يوم أمس.

أوقفه صديقي العجوز بإشارة من يده وهو يقول ضاحكاً:

• على مهلك ... على مهلك أيها الهرم... لا تخف نحن في عجلة من أمرنا .... نسلم عليك ونغادر.

بدأت قطرات المطر تتساقط من سقف الكوخ بشكل كثيف وعلى إثر ذلك لم أجد بُداً من أن أنهض نحو الباب المفتوح لأشاهد هطول المطر ....

كان المطر كثيفاً وغزيراً للغاية وتعالت أصوات الأواني المعدنية والبلاستكية وهي تُملاء بالماء ليخالط صوتها أصوات إنفجارات مكتومة تأتي من بعيد ، وقفت

شارداً أحدق في قطرات المطر وهي تضرب الأرض وتضرب أجساد الأطفال السمراء الذين تفيض حركاتهم بالعفوية والمرح كان منظراً بديعاً للغاية لم أشاهده منذ وقت طويل.
هؤلاء القوم يعيشون حياتهم الخاصة في عالمهم الخاص وظروفهم الخاصة وطقوسهم الخاصة بمعزل تام عن العالم الخارجي،الرابط الوحيد الذي يربطهم بالعالم الخارجي هو لقمة العيش،تجدهم يتكيفون مع محيطهم القاسي بمرونة بالغة ومنقطعة النظير ، لكن هل يمكن لإرادة الحياة أن تغلب إرادة الموت ؟
هل يمكن لعصفور أن يحلق بعيداً عن مخالب صقر متوحش اعتصره الجوع فسخر كل قواه لهذا الانقضاض العنيف ؟
أحسستُ بيد تجذبني من الخلف وسمعت صوت الحاج خليل يهتف بصوت عال يحاول به أن يتغلب على الضجيج الذي تخلفه قطرات المطر على سقف الكوخ :
• هيا إنه وقت الطعام .
عدت إلى جوار صديقي العجوز الذي كان منهمكاً على ما يبدو في حديث طويل مع الحاج خليل ،وما كدت أستقر حتى تقدمت ربة البيت وهي تحمل بيديها قدراً نحاسياً كبيراً تفوح منه رائحة عصيدة محترقة ، وضعت ربه البيت القدر بسرعة وشرعت في لعق أصابعها التي لسعها القدر الساخن ،ثم غابت لتعود وتضع أناء كان فيما مضى خوذة جندي سكبت فيها بعض اللبن الرائب ،أشار الحاج خليل نحو الطعام مُرحباً فلم أجد بُداً من مد يدي و البدء في الأكل كنا ثلاثتنا نتناول طعامنا ونتجاذب أطراف الحديث ،حانت مني التفاتة عفوية نحو إحدى زوايا الكوخ ،حيث تكومت الأجساد المبتلة وهي تحدق بنا بعيون غائرة وأسنان تصطك من البرد والجوع ، أحسست بألف خنجر يمزق صدري و بالدمعة تكاد تفر من عينيّ رغماً عني ،التقطتُ لقمة بيدي ومددتها نحو أحد الصغار الذي أسرع مهرولاً نحوي بجسد شبه عار يهزه البرد ،وعلى الرغم من محاولة أمه الإمساك به إلا أنه نجح في الإفلات منها و جلس إلى جواري ،والتقط اللقمة وبدأ في مضغها في لقم صغيرة بعد أن قلبها مرات بين كفيه الصغيرين.
أقسمت أني لن أتناول لقمة أخرى إلا بعد أن ينظم الجميع إلينا وافق الحاج خليل على طلبي وانضم الجميع إلينا بما فيهم من بقي في الخارج لتتزاحم الأيادي السمراء داخل القدر النحاسي.... كان الجوع قد بلغ مبلغه من هذه الأسرة فبطبيعة الحال لا يوجد سوى هذا الطعام طوال اليوم وبالتأكيد هذه هي الوجبة

الوحيدة لهذه الاسرة .
كم هي عظيمة هذه الأخلاق وكم هو عظيم هذا الإيثار الذي تتمتع به هذه الأسرة البسيطة في الوقت الذي تفتقر فيه أرقى المجتمعات وأغناها وأكثرها رقياً وحضارة إلى هذه القيم .
لم يكن يخطر على بالى أن هذا الصنف من البشر مازال موجوداً خارج إطار الكتب والسير التاريخية ،أو بمعنى أدق لم أكن أؤمن بأن له وجود فعلي على وجه الكرة الأرضية ، بالرغم من قساوة وضعهم المعيشي الذي بلغ حداً لا يطاق بكل المقاييس في الظروف الاعتيادية إلا أن الظروف الحالية التي تمر بها البلاد ارتقت بنمط معيشة هذه الطبقة من الناس من مرتبة لا يطاق إلى مرتبة الاستحالة الفعلية.
باختصار شديد كان هؤلاء القوم برغم سموهم الأخلاقي الذي لمسته ورقي تعاملهم يشكلون بالظروف التي يعيشون في ظلها بؤرة حقيقية من بؤر الألم وموطن عريق لكل أوجاع المجتمع ومعاناته .
طوت السماء سحبها بعد طول انتظار خرجنا أنا وصديقي العجوز نعبر الطرقات الموحلة ومضيفنا الحاج خليل ومن خلفه حشد من أطفاله يشيعوننا بنظراتهم الودودة وهتف الحاج خليل وهو يلوح بكفه قائلاً :
• ننتظر منكما زيارة أخرى .
التفتُ نحوه وأنا ألوح بكفي مودعاً ولمحتُ من خلفه تلك الأكف والسواعد السمراء النحيلة تلوح لنا مودعة فبالتأكيد لن أنسى تلك العيون الواسعة البريئة التي تفيض بتلك النظرات الودودة.
عبرنا بعض الأزقة الموحلة لنصادف بعض الشباب والأطفال والنساء مشبعين بالبلل وهم يجرون خلفهم أذيالاً طويلة من الأسلاك الكهربائية مختلفة المقاسات والأحجام وعلى وجوههم ابتسامات عريضة توحي بالنصر ، وتناهى إلى مسامعنا عبارات الفرح والتهاني تتناثر من عشرات الوجوه التي أطلت من أبواب ونوافذ الأكواخ تراقب هذا الحشد وهو يجر غنيمته على الأرض الموحلة .
ألتفتُ نحو العجوز مستفسراً عما يحدث فقال وهو يقلد صوت الحاج خليل عندما يبرر موقفه بنبرته الفلسفية:
• الكهرباء مقطوعة في كل الأنحاء وبالتالي فهذه الأسلاك لم يعد لها أي فائدة أو داع لوجودها فالاستفادة منها عبر حرقها وبيع ما فيها من نحاس لتجار الخردة

لنشترى بثمنها الدقيق أفضل من إبقاءها كمحطة انتظار للغربان والعصافير.
إنفجرنا ضاحكين ونحن نشق طريقنا بصعوبة قفزاً على رؤوس أصابعنا فوق البقع الجافة في هذه الأزقة الموحلة.
وما هي إلا دقائق إلا و إبتلعتنا أزقة مدينة الصفيح هذه لتلفظنا على الجهة الأخرى من المدينة على طريق ترابي فسيح موحل ترامت من حوله الحقول الزراعية المحروثة حديثاً على ما يبدو وقد أمتلأت جنباتها بمياه المطر أشار العجوز نحو هذا المنظر معلقاً:
• الحمد للّه....رحمة ربك وسعت كل شيء.... سقيا خير بأذن اللّه.
كان المنظر خلاباً للغاية أنسانا مشقة المسير الطويل الذي بدأناه منذ خروجنا من مدينة الصفيح وعلى الرغم من لطافة الجو وعذوبة الهواء البارد المشبع برائحة التربة المبللة وجدنا أنفسنا نقف جوار الطريق ننتظر من يقلنا.... مرت عدة عربات من جوارنا وعلى الرغم من إشاراتنا المتكررة لها بالوقوف إلا أنها تجاهلتنا تماما.
واصلنا المسير لمسافة ليست قصيرة قبل أن يفاجئنا صوت بوق عال ومتواصل لشاحنة عسكرية آتية من خلفنا وعلى الرغم من أننا نسير خارج الطريق إلا أننا وبحركة تلقائية قفزنا إلى احد الحقول المجاورة لنتفادى هذه الشاحنة المسعورة.
عدنا إلى الطريق ونحن ننظف بقايا الطين عن أيدينا وثيابنا ، وبينما انهمك العجوز في تذمره ، توقفت إلى جوارنا شاحنة عسكرية متوسطة يقودها مدني أشعث الشعر كث اللحية والشارب على نحو ملفت، طالع السائق وجوهنا بعيون متورمة لثوان قبل أن يبادرنا قائلاً :
• هل تحتاجان إلى من يقلكما؟
رد عليه العجوز وهو يحاول فتح باب الشاحنة :
• شكراً لك يا بني لقد بلغ منا التعب مبلغه.
كان باب الشاحنة مغلق من الداخل فأشار السائق بإبهامه إلى الجزء الخلفي من الشاحنة فأسرعنا في إعتلاء مؤخرة الشاحنة واحتلينا مكاناً بين عدد من الصناديق الخشبية وبعض الأكياس البلاستكية التي تم توضيبها بشكل طولي لتبدو وكأنها تحوي سجاداً منزلياً جلسنا القرفصاء متقابلين ونحن نمسك ببعض الأغراض مخافة أن نسقط وتسقط علينا الأغراض جراء سرعة السيارة على الطريق التي تكاد لا تخلو من الحفر المملوءة بمياه المطر ..... ذات الجمال

نراه يكسو كل شيء هنا بعد هطول المطر ... الهواء مشبع بروائح الأشجار البرية التي غسلتها الأمطار وبرائحة التربة المشبعة بالمياه مزيج رائع من الروائح والمناظر جعلني أنهض بعفوية لأقف فاتحاً ذراعاي لأبدو وكأنني طائر رخ عظيم أطلق العنان لجناحيه ولخياله ليعبر الفضاء تاركاً خلفه ما شاهده من مسلسل الفناء الدائر على هذه البقعة من الأرض ،أغمضت عيناي وبكل ما أوتيت من قوة قذفت ما علق بصدري من رائحة البارود والتراب واستبدلته بهواء بارد عذب يعيد الهدوء للأعصاب والصفاء للذهن ....لا شيء يمكنه أن يجعلك تمل من هذا الوقوف اللذيذ ومن النظر إلى هذا المنظر البديع.

عدت أدراجي وعلى وجهي إبتسامة إرتياح كبيرة .... لكنها للأسف لم تدم طويلاً فقد لاحظت تغيراً كبيراً في ملامح العجوز .... هززت رأسي مستفسراً وقد بدت ملامح القلق على ملامحي ، أشار لي العجوز بشفتيه نحو أحد الأكياس البلاستكية الملقاة عند أقدامنا كانت بقعة من الدماء قد سالت من أحد جانبيها دنوت برأسي من أسفل الكيس فشاهدت قاع حذاء عسكري ، أدركت ما يجري .... هززت رأسي في إشارة تأكيد للعجوز الذي بدوره أشار لي بكفه بالجلوس والهدوء.... عدت إلى مكاني وكم هائل من الرعب يعصف بكياني حاولت أن أقول شيئاً إلا أن الكلمات ماتت في حلقي وحانت منى إلتفاته قلقة نحو كبينة السائق لأستطلع إن كان قد شعر بأننا أدركنا ما يحمله أم لا فشاهدت السائق يبدو هادئاً وهو يرتشف الحليب من إحدى العبوات الكرتونية وصعقت عندما شاهدت الكرسي المجاور للسائق وقد تكدست عليه بنادق آليه وبعض علب الذخيرة وأحذيه عسكرية ، أشرت إلى العجوز بيدي بعصبية بأن يأتي ليرى ما أراه رفع العجوز رأسه بحذر ليلقى نظرة سريعة ثم عاد أدراجه وهو يشير بيديه بعصبية بعدم مواصلة التحديق في كل شيء مما قد يثير حفيظة السائق.

غريب هذا العجوز بشكل أو بآخر سيعرف هذا السائق أننا عرفنا ما يحمله على شاحنته خصوصاً وأن بقعة الدماء التي تتسرب من الكيس البلاستكي قد بدأت في التوسع مما يعنى أن الجثة ما زالت تنزف ... كيف لم انتبه لهذا؟ الجثة مازالت تنزف وهذا حتماً يعنى أن صاحب الجثة ما زال حياً وربما يفقد حياته أن ظل ملفوفاً بهذه الطريقة ، نقلت ما يدور في رأسي للعجوز الذي تغيرت ملامحه أكثر وراح يهز رأسه بإشارة تنم عن رفض الفكرة وأشاح بنظره نحو بقعة الدماء وهى تتوسع ببطء على نحو ملحوظ وبدا وكأنه يفكر في شيء ما إلتفت على إثر

ذلك إلى كبينة السائق الذي كان يبدو عليه أنه مازال مشغولاً بالطريق و فجأه مد العجوز يده إلى جيب جلبابه وأخرج نصل مدية صغيرة شرع في فك الأربطة التي تلف الكيس البلاستكي وهو يغمغم بقلق:

• لا أدري أي حماقة نرتكبها إنما هيا ساعدني لنحرر وجه الرجل بعض الهواء قد ينقذ حياته إن كان مازال حياً .

ما كدنا نفتح الكيس البلاستكية حتى سمعنا شهقة طويلة وسعال خفيف لنشاهد وجهاً بجرح جاف غائر على الجبهة وبنافورة من الدماء تخرج من فمه فعدل صديقي العجوز من وضع رأس الرجل وفتح فمه ودس فيه منديلاً قماشياً وشرع ينظف الدماء المتجمعة في حلقه ليسمح له بالتنفس بحرية وما إن انتهى حتى فض العجوز بقية الأربطة بعد أن غطى على وجه الضحية وهو يقول بصوت خافت مخاطباً نفسه وقد تصبب جبينه بالعرق :

• أين مكان الإصابة ؟أين مكان الاصابة؟

ما كدنا نكشف بقية الغطاء حتى شاهدنا جسداً يرتدى الزى العسكري وقد لفت منطقة البطن بلفافات عريضة من الضمادات الطبية وقد بدأت الدماء تسيل منها بشكل غزير.

فيما وقفت قلقاً أنقل بصري بين الجثة المسجاه وبين كبينة السائق والمرآة التي إن نقل السائق بصره إليها وإن كان بحركة عفوية لكشف أمرنا ولا ندري ما الذي سيكون بانتظارنا ،شرع العجوز في جس نبض الضحية لترتسم على شفتيه ابتسامة ارتياح وهو يرمق كبينة السائق بنظرات حذرة ليقول على وقع اهتزاز الشاحنة بعنف جراء عبورها إحدى الحفر:

• مازال حياً حتى الأن.... لكن الخطورة تكمن في أن نبضه ضعيف بسبب فقدانه كمية كبيرة من الدماء يبدو انه أصيب في البطن بإصابة بالغة وقد أجريت له إسعافات أولية لكنها لم تمنع من حدوث النزيف أعتقد انه يحتاج لتدخل جراحي .

أتم العجوز عبارته وهو يشد من وضع الضمادات ويضغط على مكان الإصابة عدة مرات ويعيد إغلاق الكيس البلاستكي وهو يقول :

• ساعدني على إعادة لفها كما كانت.

التقطتُ يد الرجل المصاب لأعيدها إلى داخل الكيس ،لكني شاهدت شيئاً جعل الدنيا تظلم أمامي وشعرت بقلبي يهوي بين قدماي ، شاهدت وشماً لنسر على

ظهر الكف اليمنى للرجل للمصاب ،فتحت بسرعة الغطاء عن وجهه ، كانت على وجهه طبقة من الدماء ومن أصباغ التمويه العسكرية تجعل التعرف عليه صعباً من الوهلة الاولى ،شاهدته وهو يفتح عينيه محدقاً نحوي وهو يئن أنيناً خافتاً ، أعدت الغطاء على وجهه متيحاً له الفرصة للتنفس وأنا أقول للعجوز مذعوراً :

• إنه ذلك القناص.... إنه ذلك القناص الذي قابلناه في المدينة.

كشف العجوز بسرعة الغطاء عن وجه الرجل المصاب الذي ما زال يئن بخفوت وعيناه مفتوحتان تحدقان في الأعلى فقال العجوز وقد بدت عليه علامات التوتر والقلق واضحة إلى حد كبير :

• معك حق إنه هو ويبدو أنه يحتضر.

أعدنا لف الرجل المصاب كما كان وأتحنا له مجالاً للتنفس ثم عدل العجوز من وضعية إستلقاء الرجل ليجعله مستلقياً على أحد جانبيه وقال العجوز وهو ينهى عمله :

• هذه الوضعية ستمنع تجمع الدماء في حلقه و ستسمح له بالتنفس بوضع طبيعي وعلى أمل أن يُسعفه الوقت بالوصول إلى المستشفى قبل أن ينتزع النزيف حياته.

ظللت أنقل بصري بقلق بين كبينة السائق والرجل المصاب والعجوز و أجبته وقد سيطر القلق والخوف علي تماماً :

• وماذا لو عاش أو أصدر أي صوت الآن سوف يجلب لنا مشاكل لا حصر لها وربما قد نُقتل هنا على يد هذا السائق بعدما شاهدنا هذا الرجل وإن وصلنا إلى وجهتنا فلن يدعوننا نمر بسلام ،وحده اللّه يعلم ماتحويه بقية هذه الأكياس والصناديق .

طأ طأ العجوز برأسه وهو يمسك بجبهته لحظات وهو يتمتم بشيء غامض قبل ان يقول بثقة:

• فعلنا ما يمليه علينا الدين والضمير فلا يجوز أن نترك شخصاً في حالته مهما كانت المبررات ، أما فيما يخص مشكلتنا أنتظر سنجد حلاً بالتأكيد.

مرت لحظات من الصمت بدت طويلة ومؤلمة للغاية، أنهاها العجوز بحركة مباغتة من يده وهو يطرق عدة طرقات هادئة على الحاجز الزجاجي الذي يفصل كبينة السائق عن مؤخرة الشاحنة ،إلا أن الشاحنة ظلت تسير بذات السرعة ولم تتوقف فتبادلنا النظرات القلقة ،عاود العجوز الطرق بعنف هذه المرة وهو يرسم على وجهه إبتسامه هادئة حاول جاهداً أن يحافظ عليها عندما

رمقه سائق الشاحنة بنظراته عبر المرآة الداخلية .
توقفت الشاحنة دفعة واحدة، فاندفعت أجسادنا فوق محتويات الشاحنة وسمعنا باب الشاحنة يُفتح وسمعنا خطوات السائق تقترب ،فأخذ منا الرعب كل مأخذ فأسرعنا بالنزول حتى نقابل السائق خارج الشاحنة قبل أن يكشف أمرنا ،تسمرنا وتجمدت الدماء في عروقنا ونحن نطالع السائق يقف أمامنا بجسده الضخم حاملاً بندقيته الآلية بيد واحدة وأصبعه على الزناد ،ظل يحدق بنا لحظات بعينيه المتورمتان قبل أن يرفع بندقيته ليسندها على كتفه وهو يهز رأسه باسماً وعلى شفتيه طبقة بيضاء جافة خلفها شربه للحليب وهو يقول بارتباك :

• المعذرة.... هل أنتما بخير لم أشاء أن أسبب لكما الأذى .

صافحه صديقي العجوز هو يجره من يده باسماً نحو مقدمه الشاحنة وهو يقول :

• شكراً لك يا بني لقد ساعدتنا كثيراً طريقنا تنتهي هنا أتمنى أن نراك مرة أخرى.

هز السائق رأسه مرحباً وعاد أدراجه ليحتل مقعده خلف المقود هممنا بالانصراف إلا أننا توقفنا على وقع صوت سائق الشاحنة فالتفتنا وقد تجمدت الدماء في عروقنا فشاهدنا سائق الشاحنة و هو يحدق فينا من المرآة الجانبية وقد ارتسمت على محياه ابتسامة عريضة و قال بصوت جهوري وهو يؤدي التحية العسكرية :

• أيها العجوز.. شكراً جزيلاً لك .... شكراً على كل شيء.

تبادلنا نظرات الدهشة أنا وصديقي العجوز ونحن نلوح للسائق بأكفنا ليبادلنا التحية بكفه وهو يطلق العنان لشاحنته مخلفاً ورائه سحابة من الدخان الأسود وذيلاً طويلاً من الضجيج.

حقيقةً لم أكن أتوقع أن يكون سائق هذه الشاحنة بهذا الخلق الرفيع على الرغم من أن مظهره وحمولة شاحنته توحيان بالعكس تماماً، توقفنا نشيع الشاحنة المغادرة بنظراتنا وما إن إختفت حتى إستدار العجوز وهو يشير نحو الأفق البعيد إلى نقطة من العمران تفصلنا عنها مساحة شاسعة من الأراضي الزراعية والأشجار قائلاً بهدوء:

• علينا بلوغ تلك المنطقة قبل مغيب الشمس هيابنا.

سألت العجوز بحيرة:-

• هل تعتقد أن ذلك السائق عرف بما فعلناه؟

إلتفت نحوي قائلاً بهدوء :
• حقيقة لا أدرى .... إنما مايهم أننا فعلنا ماينبغي علينا فعله.
رفع العجوز طرفي جلبابه وثناهما حول خاصرته وشد خطاه نحو هدفه ولم أجد بداً من اللحاق به مشمراً عن ساعداي وساقاي .
بدأ العجوز بساقيه الطويلان يقطع الحقول الزراعية وأنا من خلفه وأقدامنا تغوص في التربة المشبعة بمياه المطر، حاولنا مراراً تفادي البقع الرطبة في هذه الحقول إلا أن كل محاولاتنا باءت بالفشل، فقد كانت الأمطار غزيرة هذا اليوم وكذا فإن خط سيرنا نحو النقطة التي حددها العجوز فرض علينا أن نجتاز الحقول الزراعية بالعرض ،ولم يكن لنا الخيار في استخدام الطرقات الضيقة التي تمر بجوار كل حقل كون هذه الطرقات مترابطة مع بعضها البعض كدائرة كبيرة مترامية الأطراف، وبالتأكيد كنا سنهدر وقتاً طويلاً في قطعها وفى الأخير لن نصل إلى نتيجة فعلية تتناسب مع الحيز الضيق من الوقت الذي نملكه.
حقيقةً لا أدري إلى أين يمضي بنا هذا العجوز ؟ و أي جنون ذاك الذي جعلني أثق به كل هذه الثقة ...أنا لا أعرف عنه شيئاً...أنا لا أعرف حتى اسمه ...يالللغرابة كيف يضع إنسان عاقل حياته بل و مصيره تحت تصرف شخص لا يعرفه إلا منذ بضع ساعات ربما لا تكاد تصل في مجموعها إلي يوم كامل .
وصلنا إلى منطقة خارج إطار المنطقة الزراعية وبدأنا في قطع بعض المسافة بين شجيرات صغيرة متفرقة.... وفجأة سمعنا صوتاً واهناً يقول:
• هيا .... هيا.... هل ترغبان في توصيلة مجانية؟
إلتفتنا نحو مصدر الصوت فبدا كهل حاد الملامح أبيض الشعر يقود عربة خشبية يجرها حمار إقتربنا من الكهل مصافحين بادره صديقي العجوز قائلاً :
• شكراً لك .
إعتلينا العربة الخشبية وتركنا أرجلنا تتدلى بحرية رغبة منا بإستجلاب الراحة بعد طول مشي إلتفت سائق العربة نحو صديقي العجوز قائلاً بفم يكاد يكون خالياً من الأسنان :
• من أين أتيتم؟
أجاب صديقي بهدوء:
• لقد كنا في مدينة الصفيح والآن نقصد (نفوسة) ولم نجد وسيلة مواصلات تقلنا إلى هناك وأنت من أين أتيت؟

أجاب سائق العربة دون أن يلتفت إلينا:
• منذ الصباح وأنا في محطة الضخ أجلب المياه من هناك لكن وبعد طول إنتظار أعلمونا أن المحطة توقفت عن ضخ المياه بسبب نفاذ الوقود، فتركت البراميل الفارغة هناك وعدت لم أعد قادراً على الإنتظار هناك أكثر.
سأله العجوز قائلاً:
• وماذا عن المياه؟
أجاب سائق العربة وهو يحث الحمار بالعصا على الإسراع:
• لا يهم مازال هناك ما يكفينا حتى يوم غد ، وقد أودعت البراميل لدى أحد معارفنا هناك وفى حال تم تشغيل المحطة سوف يقوم بتعبئتها وسوف أتي لأخذها صباحاً.
سادت فترة من الصمت أشعل الكهل على إثرها مذياعاً بجواره، كانت الأشجار تبدو أكثر كثافة في هذه المنطقة ولمحت العديد رجالاً ونساءً من مختلف الأعمار يحملون فؤوسهم ويقطعون أغصان الشجر ثم يحزمونها في حزم كبيرة ينقلونها على ظهور الحمير أو على رؤوس النساء وعواتق الرجال،فقال سائق العربة وهو يخفض من صوت المذياع :
• أنهم يجمعون الحطب... البعض منهم يبيعه في السوق .... والبعض الأخر للإستخدام المنزلي... فالغاز إختفى تماماً ولم يعد له وجود حتى في السوق السوداء.
فقلت له:
• ولكنهم بهذا يقضون على الغطاء النباتي وآثاره المستقبلية على الأرض والإنسان ستكون وخيمة بلا شك ألم تسمعا بزحف كثبان الرمال نحو الأراضي الزراعية .
إلتفت صديقي العجوز نحوي وهو يقول ساخراً :
• عن أي مستقبل تتحدث يافتى ؟ وعن أي رمال تتحدث ؟القضية هنا قضية حياة أو موت....فموت شجرة خير من أن يموت إنسان، أما عيد الشجرة ويوم البيئة وفعاليات الإحتباس الحراري ماهي إلا نشاطات خلقتها مخيلة الأنسان أيام الرفاه النسبي لتقضي عليها كماترى الأن أيام الفاقة والعوز بقسوتها.... فبدون حطب كيف سيطهو هؤلاء طعامهم.... ليس لديهم خيارُ آخر خصوصاً مع إنعدام المحروقات .
وجدت أن حديث صديقي العجوز منطقياً للغاية، فعندما يتعلق الأمر بالحياة

والموت، تجد الإنسان يتخلى تلقائياً عن أشياء كان يعتبرها جوهرية و من صميم مكوناته الحياتية أو العاطفية في الظروف العادية ، ليُسخر كل إمكاناته في الحصول على ما يشبع به الرغبات الملحة من مأكل ومشرب ، لذلك فندرة الاحتياجات المعيشية الأساسية، تجعل الإنسان يقع تحت ضغط دافع إشباع الحاجات والرغبات الأساسية، لكي يتمكن من العيش ، فإلى جانب عامل الندرة ، تلعب قساوة الظروف المحيطة دوراً هاماً في إعادة تشكيل سلوك الإنسان ، وبالتالي العودة بسلوكه تدريجياً إلى النمط الطبيعي(الفطري) الذي يحدد مستواه علماء الاجتماع في أدنى مستوياته عند مستوى سلوك إنسان الغابة ،لذا فالإنسان يحاول أن يتكيف مع الوضع المعيشي الجديد الذي طرأ عليه مهما كان قاسياً ، مدفوعاً بدافع من غريزة حب البقاء متخلياً عن أي عادات أو سلوكيات اكتسبها في أوقات الرفاه ويبدو أن المقولة الشهيرة التي تقول ...بأن (الزمن ينسينا من نحب ويعودنا على ما نكره)...تختصر ما يدور في رأسي الآن ، فقد لاحظت العديد ممن يجمعون الحطب يبدو أنهم من المتعلمين وربما من أبناء الطبقة المتوسطة فهيئتهم وطريقة عملهم في جمع الحطب تجعلك تستنتج تلقائياً ،أنهم لم يزوروا مثل هذه المواقع في حياتهم سوى للنزهة فقط وأن جمع الحطب ما هو إلا نشاط عابر و قاس ، فرضته الرغبة في الحياه وكذا الظروف الأشد قسوة التي يمر بها هؤلاء القوم ، فلا شيء في الكون كما يقول علماء النفس البشرية أشد مرونة من النفس البشرية في تكيفها مع الظروف المحيطة بها مهما بلغت درجة قسوتها.

انتزعني من خضم أفكاري صوت صديقي العجوز يسأل سائق العربة قائلاً :

• وكيف الأوضاع في (نفوسة) ؟

إبتسم سائق العربة وهو يقول بسخرية:

• عن أي أوضاع تتحدث يا رجل ... لا يوجد ماء ... لا توجد كهرباء.... لا توجد خدمات... لا يوجد أمن....إنما مازال فيها بشر أو بالأصح أشباه بشر.

رد عليه العجوز قائلاً:

• ظننت أن (نفوسة)ستكون أحسن حالاً من بقية المناطق طالما وهى تقع تحت سيطرة الثوار منذ فترة طويلة .

رشقه سائق العربة بنظرة ازدراء سريعة قبل ان يرد قائلاً بمرارة :

• تقصد تحت سيطرة الثيران وليس الثوار....فكل ما في (نفوسة) معطل ومدمر

تماماً يا رجل، لا تصدق كل ما يقال فلا يوجد أي فرق يذكر بين منطقة و اخرى ،فالموت على ما يبدو حط رحاله في هذه الأرض و لايبدو انه سيغادرها قريبا.
صمت لحظة قبل أن يتابع وهو يرفع حاجبيه البيضاوان باستغراب وهو يحدق في البعيد :
• أن تموت الآن خير من أن تموت بعد لحظات، فالحياة غدت ركضا عقيماً ومؤلماً ليصبح البقاء على قيد الحياة أكثر إيلاماً من نزعات الموت.
أنهى عبارته وهو يحدق في وجه صديقي العجوز ليبدو وكأنه ينتظر تعليقاً ما ،لحظات مرت من الصمت قتلت كل أمل له في الحصول على تعليق أي منا ، ما لبث أن تابع حديثه وهو يطلق من أعماق صدره زفرة حارة :
• الحياة هنا أكثر ايلاماً من الموت ،أنفاسك في أحسن الأحوال لن تقضي بين أصابع الموت سوى لحظات ،لكن الحياة هنا مشوار طويل من الألم المتصاعد لن تجد عنه بديلاً مريحاً سوى الموت ،وكن على ثقة بما أقوله الموت فقط لا غير ،وعلى أي حال فالوضع مزر للغاية فى نفوسة ....ولم العجلة ستشاهدان كل شيء بعينيكما.... لا أدرى أي شيطان لعين رما بكما هنا .
لفظ عبارته الأخيرة بخفوت ظناً منه أننا لن نسمعها.....
وعلى وقع كلماته عقد صديقي العجوز مابين حاجبيه وهو يقول باهتمام:
• إلى هذا الحد؟! مر وقت طويل منذ أن زرتها ... أعتقد أن زيارتي كانت قبل هذه الأحداث بعام على ما أظن وكانت في أحسن حال كما هي منذ عرفت نفسي.... أيعقل أن تكون قد بلغت الحد الذي تقوله؟.
لم يجبه سائق العربة وإنما ظل يحدق في الطريق أمامه وكأن الكلمات انتحرت في جوفه أو ربما أنه ظل يسترجع شريطاً طويلاً من مسلسل الدمار الذي تزخر به ذاكرته فلم يسمع كلمات صديقي العجوز .
في الأفق البعيد بدا خط العمران الذي غادرناه في الصباح الباكر يتراءى لنا بصعوبة ومن خلفه ومضات متفرقة حسبتها للوهلة الأولى ومضات البرق، إنما مع أصوات دوي مكتوم يأتي ضعيفاً من تلك المنطقة ومع سماء تبدو صافية ،أدركت يقيناً أن القصف تعلو وتيرته الأن هناك.
تفاجأت للغاية ونحن نقطع طريقاً إسفلتياً عريضاً، كنت أعتقد أننا في عمق الوادي وأننا قد إبتعدنا ما فيه الكفاية عن العمران إنما يبدو أن هذه الطريق

هي إمتداد بعيد لتلك الطريق التي تمر أمام الحي الجامعي، على أي حال ظلت العربة تسير تارة بمحاذاة الطريق الإسفلتي وتارة بعكسه وتارة أخرى تقطعه مما يعنى أن هذا الطريق يلتف في باطن هذا الوادي كأفعى طويلة ما لها من نهاية، وعلى وقع الضجيج المنبعث من المذياع إنهمك صديقي العجوز في حديث ما مع سائق العربة .

صادفنا العديد من المركبات المحترقة على جانبي الطريق كان منظرها متفحماً ومستفزاً لأبسط المشاعر الإنسانية ،كانت أعدادها تزداد كلما تعمقنا في هذا الوادي .

بالتأكيد لم تكن تلك العربات المحترقة عسكرية فقط إنما كانت في غالبيتها مدنية ربما تم قصفها أو ربما وجد أصحابها أنفسهم في خضم معركة أو في كمين فقدوا فيه كل ما يملكون بما في ذلك حياتهم، فلم يجد العابرون أي خيار سوى دفن الضحايا أو بقاياهم جوار الطريق الإسفلتي على بعد خطوات من تلكً الهياكل المحترقة لا بد وأن أعداد الضحايا كانت بالعشرات وربما بالمئات هذا مايمكنك أن تستشفه من وجود ذلك الكم المهول من شواهد القبور التي تناثرت على جانبي الطريق.

وللعلم فالحركة على هذا الطريق نادرة للغاية على الأقل منذ أن وقعت عليه عيناي وبإستثناء العربات المحترقة لم أشاهد سوى بضع سيارات نقل بضائع تحمل في مؤخرتها حشوداً من الفارين من جحيم المعارك في المدينة وقد تكدست أجسادهم المملوءة تعباً ورعباً وجراحاً فوق بعضها البعض على نحو مزعج ومريع للغاية.

أمتار أخري قطعناها لتبدو لنا بعض المساكن المتناثرة هنا وهناك وقد إكتست واجهاتها بالسخام الأسود الناتج عن إحتراق محتوياتها كانت أعدادها في تزايد كلما مضينا إلى الأمام.... أدركت يقيناً أننا على مشارف مدينة أو ماشابه....

قرأت لوحة تعريفية بجوار الطريق وقد أحدث الرصاص فيها ثقوباً متفرقة وعلى نحو ملحوظ (مرحبا بكم في مدينة نفوسة).... على الرغم من أني سمعت هذا الإسم سابقاً على لسان صديقي العجوز إلا أن إيقاعه بدا غريباً على أذناي ورحت أردد في نفسي... نفوسة ...نفوسة ...نفوسة...وعلى الرغم من غرابته فقد بدا لي في نهاية المطاف إسماً مقبولاً ليُطلق على مدينة.

كانت الخنادق المحمية بأكياس الرمل والعربات المسلحة تنتشر بشكل

كثيف هنا، شد إنتباهي ذلك الكم الهائل من العبوات البلاستكية العديدة الألوان الموضوعة على جانبي الطريق وعلى بعد مسافة منها يقف عدة أشخاص حاملين أسلحتهم وهم يراقبون الطريق بعيون متعبة، لم أرغب في السؤال عن ماهية الشيء المعروض للبيع في هذه العبوات والذي يعرضه شباب وأطفال وشيوخ من مختلف الطبقات على ما يبدو من هيئتهم وأحياناً نساء وفتيات متشحات بالسواد يقفن على الرصيف، إنما لم تطل حيرتي فقد وقع نظري على شاب اسمر لم يتعدى العشرين من عمره ،يمسك بعبوة فارغة ويضربها بمفتاح براغ، هاتفاً بصوت جهوري متواصل:

• ديزل ...بترول...ديزل ...بترول.

راودني خاطر غريب بأن هذا الشاب قد يكون ابن الحاج خليل،لا ادري من أين جاء هذا الخاطر ،لكني طردته من رأسي و انا على يقين بأنه لا يوجد أي تشابه في الملامح بينه وبين الحاج خليل.

بداية لم يعرنا الشاب أي اهتمام، كوننا نركب عربة بدائية ،إلا أن ذلك لم يمنعه في نهاية المطاف من الاقتراب منا بجسده الأسمر النصف عاري الذي يكسوه العرق، وللحظات غمرنا بهتافه وهو يتصفح وجوهنا بنظرات متفحصة وكأنه يأمل أن تبدر أي إشارة من أحدنا تختصر عليه جزءاً مشوار تعبه اليومي .

ما إن تجاوزناه حتى شيعته بابتسامة إعجاب بذلك الجهد الجبار الذي يبذله لكنه بالتأكيد لم يلقى بالاً لابتسامتي - هذا إن فطن لوجودها في الأصل - ، كررت ابتسامتي وجعلتها أكثر وضوحاً هذه المرة ،ونحن نعبر بجوار شاب أخر يحمل ذات الصفات ،مع أني كلي ثقة بأن هذا الصنف من الناس ومنذ أجيال سحيقة مضت ،قد سقطت من مفردات قاموسهم اللغوي والعاطفي أي معنىً لغوى أو عاطفي للابتسامة، وبالتالي فلم تعد تعنى لهم شيئاً، لذا فلم أستغرب من تجاهلهم لابتسامتى.

سمعت عبارة مبتورة أطلقها سائق العربة وهو يحدث صديقي العجوز في سياق حديث لم أتابعه لكنى أدركت تلقائياً أنه يتحدث عن هؤلاء الذين يبيعون المحروقات على الأرصفة:

• ..... منهم الفقراء فعلاً و الذين يتعاطون هذه التجارة على خطورتها لتوفير مايسد رمقهم ومنهم أيضاً وهم الغالبية من يعملون لدى أجهزة الإستخبارات أو الاستطلاع التابعة لفصائل الثوار يراقبون حركة الدخول والخروج من المدينة

،ربما هذا الطريقة أكثر عملية من وضع نقاط تفتيش خصوصاً مع وجود إحتكاك بين فصائل الثوار، فوضع نقطة تفتيش لأي فصيل في مدخل المدينة قد يعني هذا التصرف ضمناً سيطرة الفصيل على المدينة دوناً عن غيره من الفصائل و قد يدفع هذا بالوضع المتأزم أصلاً نحو التأزم أكثر وربما نحو المواجهة المسلحة بين الفصائل.

سألت سائق العربة بتلقائية :

• لم تقل لي يا عم.... هل أنت مع الثورة أم.....

قاطعني ساخراً وهو يتجه بعربته نحو إحدى الأشجار الواقعة على الطريق ويوقفها قائلاً :

• أنا مع لقمة العيش ! فترة إستراحة بسيطة لهذا الحمار ، إن لم يكن في ذلك أي تأخير لكما فمنذ الصباح وهو يعمل ، من لا يرحم لا يُرحم .

رد عليه صديقي العجوز بسرعة :

• لا لا ليس هناك أي تأخير، ونحن أيضاً نحتاج إلى راحة هيا بنا.

ترجلنا من العربة و اتجهنا نحو إحدى الأشجار لنجلس تحتها في حين شرع سائق العربة في سقي حماره الماء بوعاء معدني جلبه من أسفل العربة ثم أقبل نحونا بخطوات مشدودة لا تتناسب مع هيئته وسنه وجلس على الأرض وهو يحدق في حماره بصمت .

فبادرته قائلاً :

• ليس بالخبز فقط يحيا الإنسان .

حدق العجوز بوجهي لحظات قبل أن يُجيب بذات السخرية السابقة:

• بل وبالشعارات، فنحن لا نستغني أبداً في حياتنا عن الشعارات، فهي جزء أساسي من المكونات الوجدانية للإنسان العربي،وفي ظل الشعور المتفاقم بالعجز لدى هذا الإنسان ، تمددت هذه المكونات الوجدانية ،لتسيطر بنمطها الإتكالي على كل أنماط التفكير الإيجابي والواقعي في العقل العربي ، لتشل قدرته على التفكير و إتخاذ القرارات ،فتصبح بذلك وظيفة العقل مكرسة فقط للتنظير ولعقود طويلة من الزمن في آليات وفنون تطبيق تلك الشعارات ، ولو تطبيقاً صوتياً، فبينما يعجز العقل العربي عن إيجاد حل حقيقي لمشكل إجتماعي أو سياسي، تراه يتفنن في نظم الآف القصائد التي تتحدث عن هذه المشاكل وطرق حلها ، ويحرص أشد الحرص على إصدار عشرات المجلدات من الدراسات والبحوث والتحليلات

حول أسباب هذه المشاكل وطرق تفاديها وتداعياتها المستقبلية وعن أعداء الداخل وأعداء الخارج ودورهم في خلق هذه المشاكل و.... و.... إلخ،بإختصارٍ شديد ، نحن أمة طفيلية تعيش منذ الأزل على ما تنتجه الأمم الأخرى مادياً وفكرياً ،لتتفرغ هي لنظم قصائد النصر وصياغة شعارات التحرر والأنعتاق ،نحن أمة تعشق الكلام ،والكلام فقط لا غير .

إبتسم صديقي العجوز وهو يستمع لحديث سائق العربة بتمعن في حين لم أجد ما أرد به عليه فقد فاجأني بأسلوب حديثه الذي ينم عنٍ إطلاع واسع تابع سائق العربة حديثه قائلاً بلهجة لم تخلو من نبرة الأسى مشعلاً عقب سيجارة أخرجه من طيات ثيابه :

• نحن يابني أمة ستظل تتغنى بماضيها التليد حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها وستظل هذه الأمة تعلق كل مبررات فشلها في التقدم على شماعة أعداء الداخل وأعداء الخارج دون أن تخطو ولو خطوة واحدة للأمام أو في الاتجاه الصحيح .

قال صديقي العجوز :

• هل تدركان ماهي مشكلة هذه البلاد أو ربما مشكلة هذه الأمة برمتها؟ إنها مشكلة بسيطة جداً في لفظها لكنها أم كل المشاكل التي وقعت فيها الأمة منذ الأزل إنها مشكلة فهم وتطبيق الحرية ولا أقصد الحرية بمفهومها الضيق التي ظلت أجهزة حكام هذه الأمة تلقننا أبجديتها المشوهه على مدى عقود طويلة من الزمن بل أقصد الحرية بمفهومها الواسع والحقيقي الذي يتعدي الحصول على الاحتياجات الأساسية من مأكل ومشرب ومسكن وحرية في التعبير وغيره متجاهلين عن قصد حقك في التفكير وفي تعلم ماتشاء وقول ما تشاء بل وحقك في معاملتك كأنسان واع لا يملك أحداً أياً كان الوصاية عليه وعلى أرائه وحياته .

ضحك سائق العربة ضحكة قصيرة ساخرة وهو يقول راسماً بسبابته فى الهواء :

• هل تعرف يا هذا أن أولئك الذين ظلوا عقوداً يحذرون المجتمع من إختراق خارجي يقوم به أعداء الخارج التاريخيين بتأييد وتواطؤ من أعداء الداخل ، وتخيل أن تُسخر أجهزة الدولة الأمنية والتعليمية على مدار الساعة في التحذير من (أبي رغال) جديد أو من أحفاد (أبي رغال) الذين يعيشون بينا ويتحينون الفرصة للإنقضاض على الدولة والمجتمع ،كل هذه الزوبعة التى خلقها و يخلقها هؤلاء، إنما هي لشغل الناس بأمور تافهة تصرفهم عن معرفة من هم الأعداء الحقيقيون للحرية وللوطن وللأمة، فباللّه عليكم من أعطاهم الحق لتقرير ما يجوز وما

لايجوز وما يليق وما لايليق في هذه البلاد ليجعلوا البلاد بأرائهم الظلامية تسقط بعجلة تقارب عجلة السقوط الحر نحو هاوية القرون الوسطى.
هز صديقي العجوز رأسه إيجاباً وهو يقول:

• جميعنا بشكل أو بآخر أعطيناهم هذا الحق ،لنجعلهم يسلبوننا حقنا في الحياة الكريمة ليحولونا عبر سيل من الأكاذيب وسياسة التجهيل الممنهج إلى شخصيات هزلية مقتبسة من أقاصيص ألف ليلة وليلة تعيش وتفكر وتأخذ قراراتها بهزلية وتقضي معظم حياتها فى إنتظار مكرمة من السلطان الحاكم بأمر اللّه أو في إنتظار ذلك المارد العجيب ليحل كل مشاكلها بطرفة عين .

رد سائق العربة وهو يغمغم بمرارة واضحة :

• معك حق كلنا شاركنا في هذا الضياع كان لابد أن تكون مواقفنا أكثر ثباتاً وأكثر قوة لا نعفي أنفسنا من المسئولية أمام اللّه وأمام الأمة فلربما إن كنا أكثر ثباتاً وقوة في مرحلة ما من الزمن لكان وضع البلاد والعباد أحسن حالاً مما هو عليه الأن مع إني على ثقة بأن المواجهة كانت ستكون عنيفة مع خفافيش الظلام ودعاة الجهل .

سادت لحظات لذيذة من الصمت أنهاها سائق العربة هو يلتفت نحوي قائلاً:

• لا تستغرب يا بني من حديثي ولا من هيئتي ... أنا احمل الدكتوراه في الفلسفة وعلم الإجتماع من جامعة (باتريس لومبيا) في موسكو.... عدت إلى الوطن وكُلى أمل في تأسيس مركز للدراسات الإستراتجية والاجتماعية يجمع نخبة من كبار المفكرين ذوي الدرجات العلمية العليا لكنى ما إن وصلت إلى أرض الوطن حتى تعرضتُ وزملائي للإعتقال ومُنعت من التدريس ومنٍ العمل في أي مجال له علاقة بالعلم أو بالتعليم وتم التضييق علي فلم أجد مجالاً أعمل فيه سوى الأعمال اليدوية التي تعتمد على المجهود البدني و تُلغي العقل وكأنهم بذلك يريدون قتل عقلي وليس جسدي فإن كانوا يريدون القضاء على جسدي فكان بإمكانهم قتلى في أي لحظة لكني أعتقد أن لا مانع ديني أو إنساني منعهم من ذلك وإنما هي تلك الرغبة المجنونة لشيطان الجهل التى تدفعه للتلذذ والإستمتاع وهو يرى سلطان العلم وأقصد به العقل يقهر ،فأنت إما أن تستسلم وتكفر بثابت عقائدي إسمه الوطن لتعيش في رغد مثل بقية الذين فضلوا الأنبطاح على المواجهة وإما أن تتحول إلى سجين تعيش في سجن مفتوح يتم مراقبة كل خطواتك وكل تحركات أبنائك وزوجتك ويتم التحكم في ماهية الأعمال والوظائف التي يتوجب عليك قبولها ، فاشتغلت بالخياطة وبالسباكة وبنقل المياه وبأعمال أخرى شاقة

لا حصر لها ليبدو الوضع وكأنني أقضي عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة .
سادت فترة من الصمت نفث خلالها سحابة من الدخان الخانق قبل أن يتابع حديثة قائلاً بنبرة غاضبة هو يشير بأصبعه نحوي :

• فرحت بالثورة.... كضرورة حتمية لتغيير المجتمع كما تعلمت وكما آمنت طيلة حياتي، لكني تفاجأت بأولئك الذين حاربوا كل العقول المستنيرة وأجهضوا كل أدوات ووسائل النهضة والتنوير خلال ما يقارب الأربعة عقود يركبون موجة الثورة و ينادون بالثورة المدنية ويلعنون الجهل والماضي المستبد ويبشرون بمستقبل جديد ومجتمع جديد فهل يريدوننا أن نصدقهم؟ وننسي كل ما أقترفوه بحق هذا الوطن وأهله وأن نحذو حذو عامة الناس ممن يجهلون ما وراء دعوته .

أجبتة قائلاً:

• لعلها صحوة ضمير إنتابت هؤلاء فلربما يحاول هؤلاء القوم التكفير عن ماضيهم بفعل الصواب ولماذا لا نقول أن الثورة تجب ما قبلها؟

ظل العجوزان يحدقان في ملامحي لحظات قبل أن يجيب سائق العربة قائلاً بنفاذ صبر:

• يبدو أنك يابني لاتعرف بأي عقلية يفكر هؤلاء القوم وبأي نظرة ينظرون فيها للناس فهم يؤمنون بأن لهم حقاً مقدساً في المناصب التي يشغلونها أباً عن جد وبالتأكيد فهذه المناصب منحها لهم اللّه وليس الشعب وهذا بالتأكيد في نظرهم يدل دلالة قاطعة على إصطفاء اللّه لهم ،صدقني لا ينقص هؤلاء القوم الإ أن يخرجوا على الملأ ليقولوا نهاراً جهاراً نحن أبناء اللّه و أحباؤه.

صمت سائق العربة لحظات وكأنه يستعيد ذكرى ما ثم قال وهو يوجه حديثه لصديقي العجوز:

• سلطان بيشه... وزير التعليم العالي في حكومة الثوار المعلنة .... كان مديراً لجهاز الأمن الوطني في (نفوسة) حين عدت من (موسكو).... إعتقلني هو بذاته وأشرف على تعذيبي شخصياً.... أنظر.

شمر سائق العربة عن ساعديه فبدت بقع ملساء كانت فيما مضى حروقاً عميقة على ما يبدو وفتح فمه على أخره فبدت بعض أسنانه مفقودة والبعض الأخر تم استبداله بأخرى فضية براقة وتابع قائلاً:

• تم تلفيق عدة تهم لى ، قيل بأني شيوعي و أتزعم خلية شيوعية ، قيل بأني جاسوس اعمل لحساب الروس،قيل اني مخرب لدى مخططات لشن

اعتداءات على منشآت الدولة ،كانت الملفات جاهزة وقد أعدت سلفاً سواء لي أو لغيري ،مملوءة بالاعترافات وتؤيدها أقوال الشهود ومشفوعة بالأدلة والقرائن ،مع العلم أن تهمة واحدة مما سبق ،كانت كفيلة بايصالي إلى حبل المشنقة ،هذا فى حال ثبوتها وهم قادرون على إثباتها إن شاءوا ذلك ،لكن الوجه الحقيقي للقضية سيتبين لكم عندما كان سلطان بذاته يصر على ان يحضر التحقيقات الصورية التى تجري معى بل انه يشرف شخصياً على تعذيبي.

صمت لحظات وهو يصارع غصة مريرة، كادت ان تقتل كلماته ،لكنها نجحت فى الأخير بخنقها و إخراجها مبحوحة مملوءة بالأسى :

• فأمامه تم إحراقي بأعقاب السجائر وتم إنتزاع معظم أسناني دون أن يطرف له جفن وقبل الإفراج عني أخذ مني تعهداً بعدم ممارسة أي نشاط تربوي أو علمي مستقبلاً هل تصدقان ؟.... وكأن هذا إعتراف ضمني منه ومن النظام الذي يمثله بأن تهمتي الوحيدة هي أني مُتعلم وبأنه ومن يمثله يناصبون العداء لكل ما هو علمي ولكل من لا يدور في فلكهم ويحمل ذات الرؤية الضيقة عن مفهوم الدولة والمجتمع ، يعنى لا جاسوسية ولا تخريب ولا خلايا شيوعية ولا هم يحزنون.

صمت سائق العربة لحظات كعادته وتابع قائلاً بسخرية وهو يشير نحوي بعقب السجارة الذي خبى تماماً :

• ويريدون منا أن نصدقهم وللعلم سلطان هذا لا يحمل حتى الشهادة الابتدائية وبالكاد يستطيع القراءة والكتابة قبل الثورة نال منصبه الرفيع بالحق الإلهي الممنوح له ولأسرته طبعاً وبعد الثورة انتقل سلطان لمنصب أخر بذات الحق وكأن شيئاً لم يتغير وللعلم فسلطان حالة واحدة فقط ومثله كثيرون من أصحاب التاريخ المظلم أصحاب الدماء الزرقاء ، الذين بدلوا مواقفهم بحسب ما تمليه الظروف ليحتفظوا في الأخير بمواقعهم.

هز صديقي العجوز رأسه إيجاباً وهو يجيب قائلاً:

• الثورة كانت الوعاء الذي جمع الجميع، بداخله فأستغل السراق حسن نية الثوار وافتقارهم إلى التجربة والى المنهج الثوري ، فقاموا بعملية سطو مريعة سرقوا فيها أجمل وأثمن ما في الثورة وهو طهارتها ونقائها ، ليتم تحويلها إلى مراسيم إحتفالية عنيفة ودموية تغطي على عملية تبادل الأدوار والمناصب بين حاكم الأمس وحاكم اليوم لتبقى ذات الفكرة وذات المضمون هي السائدة في البلاد .

نهض سائق العربة فاصدرت ركبتاه طقطقة مسموعة وهو يقول :
• غدت الثورة حصان طروادة القرن الواحد والعشرين،لذلك .....
بتر عبارته فجأة عندما توقفت دراجة نارية تقل شخصين على بعد بضع أمتار منا وبدا أنهما يتحدثان في شيء ما بصوت خافت وعيناهما تدوران في المكان كعيون الحرباوات فقال سائق العربه هامساً:
• هيا بنا لنرحل لقد وصل الجواسيس نحن في غنى عن مايمكن أن يسببوه لنا من مشاكل هيا بنا.

مر بعض الوقت قبل أن نعود لنعتلي العربة الخشبية لنبدأ في الغوص ببطء في أعماق (نفوسة) وبدءنا نغوص في بحر دبق من الزحام والضجيج والتوتر ، وعلى الرغم من ذلك شعرت أن حياتي الحقيقية قد عادت إلي من جديد ربما لأني كنت على حافة نسيان معنى مجتمع حقيقي ونسيان صورة التجمعات البشرية الاعتيادية ،شعرت بأني غادرت حياة الهرب وغادرت أصوات الرصاص وغادرت أصوات الانفجارات إلي غير رجعة ، لكن هذا الشعور بدأ يذوي مع كل خطوة نخطوها نحو الأمام فبدأت أشاهد أرتالاً من المسلحين بثياب مدنية يجوبون الطرقات راجلين وعلى عربات تطلق أبواقها بشكل متواصل .
تجاوزتنا سيارة لشرطة المرور يقودها مسلحون مدنيون ، عبرت الرصيف المجاور للشارع بشكل مستفز ومخيف جعل عاصفة من الأجساد البشرية ممن يفترشون الرصيف يبيعون عليه ما تيسر لهم من حطام المدينة تتدافع بذعر على غير هدى هاربة لتنجو بحياتها من طيش وعربدة السائق ،ثم يعاود سائق السيارة الكرة لتحتك جنباتها عنوة وبعنف ببعض السيارات المتوقفة عنوة ، على اثر ذلك تعالت عبر مكبرات الصوت الخاصة بالسيارة شتائم السائق الممزوجة بالضحكات الساخرة ممن حوله ثم تغادر المكان مثلما جاءت على غير هدف، وربما إلى موعد أخر مع الفوضى في مكان أخر من هذه المدينة .
كان منظراً مؤلماً للغاية بالنسبة لي وربما لك - عزيزي القارئ - هذا إن إستطعت أن أصفه كما حصل تماماً .
ظلت العربة تخترق الطرقات وعيناي ترصدان الحفر التي صنعها الرصاص والقذائف على واجهات المباني،وكذا المباني والعربات المحروقة وأكياس الرمل المكدسة على جنبات الشوارع وعلى سطوح المنازل إضافة إلى حواجز التفتيش التي يكاد لا يخلو منها شارع أو تقاطع هذا إن لم تصادف حاجزين

للتفتيش في ذات الشارع .
إجمالاً فإن (نفوسة) وكما قال سائق العربة ضمناً كانت في حال مزرية أكثر من كل الأماكن التي زرتها قبلاً فهل يمكن أن أكون قد أخطأت في تقديري للأمور عندما سرت وراء هذا العجوز على غير هدى وعلى غير هدف ؟

الفصل الثاني
نفوسة

الحق يقال أني وضعت سقف توقعات عال ومثالي للغاية عن وضع نفوسة ،ربما إختيار صديقي العجوز لها شكل عاملاً رئيسياً في انجذابي واندفاعي للمضي قدماً خلف هذا العجوز - الذي وضعت كل ثقتي فيه- هكذا بدون وعي راسما صورة مثالية للغاية لهذه المدينة وكلي أمل أن ينتهي مشوار الهرب الطويل الذي وجدت نفسي محشور فيه على غير موعد.

كانت المدينة تعج بالحركة والناس وكثافتها السكانية عالية على ما يبدو ، وعلى كُل وبعد كل ما شاهدته منذ ان دخلت هذه المدينة ،فقد بدت نفوسة كالكعكة المحترقة تماماً تحتفظ بهيكلها وطابعها لكنها للأسف مملوءة بالسخام وبرائحة الحريق ، تعافها نفسك منذ الوهلة الأولى التي تراها فيها ، وبالتأكيد لن تجد منها أي منفعة، بل إنها قد تتحول إلى سم زعاف إن حاولت تناولها لتقيم صلبك، و ستودى حتماً بحياتك.

إنتزعني صوت صديقي العجوز من صمتي وهو يمسك بيدي مخاطباً سائق العربة :

• هنا ....هنا.... سننزل هنا.... أشكرك .

جر سائق العربة لجام حماره لتتوقف العربة وترجلنا منها ونحن نصافح سائق العربة الذي ألح في إستضافتنا في منزله لكن صديقي العجوز كرر إعتذاراه و شكره لهذا الرجل الذي لولا صنيعه لكان اللّه وحده يعلم أين كنا لا نزال الآن، لوح سائق العربة بكفه مودعاً وهو يضرب ظهر حماره بعصىً غليظة ،كل ما بقي في ذهني عن تلك اللحظة هي تلك الإبتسامة الودودة التي إرتسمت على ملامح ذلك الكهل حاد الملامح وهو يلوح بكفه مغادراً وهو يقول :

• كونا حذرين وابتعدا عن المشاكل.

سرنا في شوارع نفوسة المعفرة بالتراب و المزدحمة بالناس وبالحطام وباشياء غريبة لا تدرى ماهي انما تشغل حيزا كبيرا من فراغ هذه المدينة ، وعلى الرغم من ذلك الشحوب الذي يكسو الوجوه ،وتلك النظرات النارية أحياناً والقلقة الخائفة أحايين كثيرة في عيون الناس هنا ،إلا أن نبض الحياة مازال موجوداً هنا وإن كان خافتاً فالباعة مايزالون على الأقل في محلاتهم التي خلت معظم رفوفها من البضائع ، وهناك أخرون يفترشون الأرض، يعرضون أصنافاً شتى من البضائع المهربة ، معظمها غريب الشكل ومجهول المصدر ،حتى الإسكافي موجود هنا ، يضرب بمطرقته على قطعة حديدية طرقاً متواصلاً وهو ينادي زبائنه، أو يحاول

لفت نظر الوافدين الجدد والى جواره إرتصت بعض الأحذية والنعال التي جرى تجديدها وطلائها ثم عرضها للبيع.
السلاح هنا ينتشر وبشكل مقزز على خاصرة وظهور معظم من صادفتهم حتى الآن في هذه المدينة، الجدران تلطخت بعبارات تمجيد للثورة والحرية والحرب و إرتصت صور رموز الثورة والتحرر في العالم إلى جوار صور رجال الدين ،كما إحتلت صور الشهداء و السياسيين واجهات المباني والمحلات وبعض نوافذ السيارات ، وجرى في الشوارع تعليق أشرطة طويلة من القماش هي عبارة عن حشد من أعلام حمراء وصفراء وخضراء وأحزاب أخرى أجهلها .
فسيفساء غريبة من الصور والشعارات، تجعلك تقف محتاراً لتسأل نفسك ومن حولك ، من هؤلاء ومن اين جاءوا ؟ ماذا يريدون ؟وعن ماذا يتحدثون ؟ وعلى أي أرضية يقفون ؟ وإن كنا نحفظ لهم الماضي بكل تفاصيله وعن ظهر قلب فعن أي مستقبل يتحدثون؟
لمحت صورة كبيرة تحتل واجهة أحد المباني الضخمة لرجل ضخم الجثة يبدو أشبه برجال المافيا ربما تجاوز العقد السادس من عمره إنه سلطان بيشه بذاته وتحت الصورة عبارات تشيد بالتحرر وبالدولة المدنية تبادلت الإبتسامة مع صديقي العجوز الذي قال بخبث:
• وغيره كثيرون وكثيرون إنتظر فحسب .
ظللنا نعبر شوارع نفوسة شاهدنا جدراناً من أكياس الرمل تغلق بعض الطرقات والتقاطعات وغطت واجهات ونوافذ غالبية البنايات الضخمة التى يبدو من كثافة الحراسة المتواجدة حولها أنها تضم مقراً حكومياً أو حزبياً أو ماشابه وبدت الأشرطة اللاصقة واضحة على ماتبقى من النوافذ والواجهات الزجاجية التي لم تدمر.
إنعطفنا نحو شارع طويل و هادئ نسبياً مقارنة مع ضجيج و زحام الشوارع الأخرى التي قطعناها بدا الأمر وكأننا ولجنا إلى إحدى الحارات كانت روائح عدة تفوح من هذا الشارع و الأطفال ذوي البشرة السمراء و الأجساد الشبه عارية هنا يلعبون الكرة بأقدام حافية وتعلو صرخاتهم العالية في محيط المكان الذي تكدست في جنباته اكوام القمامة والحطام وبعض السيارات المحروقة ودبابة مدمرة اعتلاها بعض الصبية وهم يديرون معارك وهمية ببنادق من الخشب ، بدا وكأنهم يعيشون في عالم خاص بهم لا يمت بأي صلة إلى ذلك العالم الذي

عبرناه منذ لحظات ، لم أتمالك نفسي من الإبتسام لهذا الفأل الحسن ومشاركة الأطفال اللعب بالكرة لحظات ، وسط إعجابهم وإنبهارهم بطريقة تناولي الكرة بقدماي وصدري ورأسي وتعالى تصفيق الأطفال وصفيرهم وهم يشكلون حولي حلقة كبيرة من الوجوه الصغيرة الباسمة ، تعالت ضحكات صديقي العجوز وهو يصفق بيديه معجباً.

وفجأة دوى صوت دوي متواصل أشبه بدوي الرعد، فتفرق الأطفال بسرعة هنا وهناك وهم يصرخون بفزع، تهاوت الكرة على الأرض وظللت أحدق فيما حولى وفي السماء ولم أفطن لما يجري و فجأة دوى صوت إطلاق نار كثيف ومتواصل أمسكت بأذناي وأنا أنحني فأمسك العجوز بيدي وهو يجرني عبر الأزقة قائلاً بصوت عال:

• إنها نيران المضادات الأرضية، يبدو أن هناك طائرة تحلق فوق المدينة.

دب الفزع والخوف في المنطقة يبدو أن هذا الصوت يجر ذكرى مؤلمة لكل فرد هنا تجعل هذا الكم الهائل من الذعر مبرراً لكل من سكن هنا.

بدأ صوت الطائرة يخفت تدريجياً مما يعني أنها تبتعد أو ربما غادرت تماماً سماء المدينة، فيما ظلت نيران المضادات الأرضية تطلق نيرانها من شتى العيارات وبوتيرة خفت تدريجياً لتهدأ تماماً، لكن الأهم من ذلك أننا لم نسمع أي صوت لإنفجارات في المنطقة.

وصلنا إلى أمام باب منزل شعبي من طابقين يحمل الرقم (21) وقد بدا الى جواره بعض المسلحين الذين بدا عليهم التوتر وهم يرمقوننا بنظرات نارية قلقة وهم يتحدثون عبر أجهزة اللاسلكي قال العجوز :

• وصلنا.... هذا منزل صديقي سالم.

أمسك بحلقة معدنية على الباب وشرع يطرق الباب فُفتح الباب وأطل منه صبي في العاشرة ظل يحدق فينا بإندهاش فبادره العجوز قائلاً هو يمسح على رأس الصبي بكفه:

• أين أباك يا فتى؟

إختفى الفتى في الداخل لحظات وتناهى إلى مسامعنا صوت جلبة تحدث في الداخل وأصوات متفرقة ،طالت فترة إنتظارنا فأخذ صديقي العجوز يصفق بيديه وهو يهتف بصوت جهوري:

• يا حاج سالم.... يا حاج سالم.
أطل وجه من النافذة حدق فينا لحظات قبل ان يشير الينا بالصعود دون ان ينطق بكلمة .....تبادلت النظر مع صديقي العجوز قبل أن نلج البيت فاستقبلنا أحدهم مصافحاً على سلم مُظلم يفضي للطابق الثاني ثم قادنا نحو باب غرفة واسعة و إختفى صامتاً.
دلفنا إلى الغرفة الفسيحة والبسيطة الأثاث لنجد رجلاً يجلس في إحدى الزوايا يعاقر نرجيلته وهو يحدق أمامه في شاشة صغيرة للتلفزيون موصولة ببطارية سيارة وقد تعالى صوت نشرة الأخبار، بعينين صغيرتين ناعستين حدق بنا الرجل ببرود شديد ثم نفث دخانه في الهواء ووضع خرطوم نرجيلته أرضاً ونهض ببطء وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ترحاب فاترة اتجه نحو صديقي العجوز معانقاً إياه ببرود وهو يربت على ظهره ثم صافحته ليمسك بأيدينا وهو يقودنا نحو مجلسه قائلاً بفتور:
• مرحباً .....ألف أهلا وسهلاً بالحاج أمين وضيفه....مرحباً.
ارتسمت على وجهي ابتسامة نصر وأنا أنقل بصري نحو صديقي العجوز بعد أن عرفت اسمه أخيراً فما كان منه إلا أن رفع حاجبيه باستسلام .
جلسنا إلى جوار الحاج سالم لأتبين ملامحه أكثر، كان نحيفاً غائر العينين ذا شعر رمادي كثيف مرسل يصل إلى منكبيه كث الشوارب واللحية، إجمالاً كان شديد الشبه بـ (راسبوتين) ،أو ربما بذئب عجوز أنهكه المرض، هذا ما تستطيع إن تستشفه من تلك النظرة النارية التي يلهبك بها منذ أن تقع عيناه عليك، كتصرف فطري منه لا يحمل ادني تكلف ، ليجعلك تعتقد جازماً ومنذ الوهلة الأولى وعلى غير معرفة سابقة بأن صاحب هذه النظرة شخص غير اعتيادي بل انه شخصية استثنائية بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، لم يفلح المرض او التقدم في السن في إطفاء جذوتها المستعرة .
بادره صديقي الحاج أمين كما سأشير إليه لاحقاً بهذه التسمية بقوله:
• كيف حالك أخي سالم وكيف حال أولادك؟
أجاب الحاج سالم وهو ينفث دخان نرجيلته في الهواء ويخفض من صوت التلفاز:
• الحمد للّه .... الحمد للّه على كل حال.... كما ترى الحال جزء من كل،كيف حالك أنت ولماذا غبت عنا كل هذه الفترة؟

أجابه الحاج أمين وهو يلتقط أحد الأكواب ويصب بعض الشاي فيه:
• في أرض اللّه.... أنت تعرفني لا أستطيع الاستقرار في مكان واحد، أحب حياة الحرية والانطلاق.
ضحك الحاج سالم حتى سعل سعالاً متواصلاً امتقع وجهه على إثره فوضع منديلا كبيراً على فمه وأنفه حتى هدأت نوبة السعال ثم عاد يلتقط خرطوم نرجيلته وهو يقول بصوت واهن:
• لك اللّه ذات الطباع لم تتغير أبداً .
هم الحاج أمين برفع كوب الشاي إلى فمه فأمسكه الحاج سالم وجذبه من يده برفق وهو يقول :
• هذا كوبي يا حاج أمين أصبت بالسل مؤخراً، سأجلب لك كوباً أخر ولكن بعد أن تتناول طعاماً .
التقط الحاج سالم جرساً نحاسياً صغيراً وقرعه عدة قرعات فدخل ذات الشخص الذي استقبلنا على السُلم وبأنفاس واهنة قال له الحاج سالم :
• الطعام للضيوف.
استدار الشخص عائداً من حيث أتى دون أن يتفوه بكلمة .
فقال الحاج أمين :
• هل عرضت حالتك على طبيب؟
أجابه الحاج سالم وهو يلوح بكفه بلامبالاة :
• نعم ذهبت إلى العديد من الأطباء، ولكن كما تعرف فالسل يتطلب علاج طويل الأجل قد يمتد إلى سنوات، وكما تعرف فالدواء نادر في ظل هذه الظروف ،وهذا يفرض عليك أن لا تسير في برنامج العلاج كما يجب ولهذا قد تطول معاناتك ،وربما تزداد الحالة خطورة وتعقيداً .
ملأ الحاج سالم صدره بنفس طويل من نرجيلته ونفث الدخان في الهواء وهو يسعل قائلاً:
• أحياناً نضطر إلى شراء الدواء من حوانيت المهربين كونهم الوحيدون الذين قد يستطيعون توفير هذه السلع وإن كانت بأثمان عاليه إنما هذه الأدوية لا تضر ولا تنفع وأظن أن المصانع الهندية و الأسيوية تكبس لنا الطحين والسكر وتبيعه في كبسولات لنشتريه كدواء.
قال الحاج أمين وهو يشير نحو النرجيلة:

• ولكن هذا الدخان سيقتلك يا حاج سالم من الأفضل أن تتركها طالما وأنت تعانى من مرض كهذا.
قاطعة الحاج سالم بصوت حاول أن يجعله قوياً لكنه لم يخلو من السعال وهو يقول :
• لا عليك يا رجل ... داويها بالتي كانت هي الداءُ ، فهذا الدخان يجعلني أشعر بأن كل شيء على مايرام ، وبالتأكيد فأنت لن تصدق إن قلت لك أنه يخفف أحياناً من حدة الآلام التي تعتصر صدري وظهري على مدار الساعة، وعلى أي حال فهذا الدخان بالنسبة لي أفضل بكثير من تلك الحقن والكبسولات اللعينة التي أتعاطاها منذ فترة ودون جدوى.
رفع الحاج امين حاجبيه مستغرباً وهم بقول شيء ولكن الحاج سالم أشار نحوي وكأنه يحاول أن يغير الموضوع :
• لم تقل لي يا حاج أمين من الضيف؟..... أهو ابنك؟
قهقه الحاج أمين ضاحكاً وهو يقول :
• إبنى!!!ألم أقل لك أني أحب حياة الحرية ولا أحب أن يُكبل أحداً ما يداي وقدماي بقيود أياً كانت هذه القيود وحتى إن كانت قيوداً حريرية.
إلتفت إلي الحاج أمين قائلاً بمكر وهو يقهقه بصوت عال:
• عرف عن نفسك يا فتى فالحاج سالم يريد أن يعرف من أنت هيا.
عرفت مغزى ضحكة الحاج أمين الماكرة ، ربما هي رد قوي على تلك الابتسامة التي بدرت مني حين اكتشفت أسمه على لسان الحاج سالم قبل لحظات ، كان لسان الحال يقول واحدة بواحدة و البادئ أظلم، فأنا أعتقد جازماً أن الحاج سالم لن يتركني حتى أفرغ له ما في جعبتي وأنا بالتأكيد على إستعداد لذلك فليس لدي ما أخفيه.
هممت بالتحدث إلا أن صوت أذان المغرب جلجل فأشار إلي الحاج سالم بالصمت وهو يردد الأذان مع المؤذن حتى إنتهى أشار إلينا وهو يقرع جرسه قائلاً :
• الصلاة في الجامع....هيا ، أما أنا فسأصلي هنا...، فأنا مريض بمرض معدي ولا أحب أن يتضرر أحد بسببي.
ما كاد ينهي كلماته حتى تعالى صوت ماكينة تدور لثوان ما لبث أن عُمر المكان بأضواء كهربائية قوية ،نهض الحاج سالم بوهن وهو يشمر عن ساعديه إستعداداً للوضوء وهو يشهد ويكبر.
فى هذه اللحظة دلف ذات الشخص الذي قابلناه سابقاً عرفته من جلبابه الطويل

وشعره المنكوش كان في الثلاثين من عمره بارد الملامح وتبدو على حلقه ندبات عديدة تبدو كأثر لجرح أو لعملية جراحية تطلع نحو الحاج سالم وهو يتجه نحوه قائلاً:

• جمال.... رافق الضيوف إلى الجامع للصلاة وعد بهم سريعاً.

هز الشاب رأسه إيجاباً دون أن ينطق بحرف واحد ليزيد من حيرتي حيال ذلك الصمت الذي يغلف كل تحركاته، وبإبتسامة ودودة أشار لنا نحو الباب فغادرنا نحو الجامع وأدينا صلاة المغرب في جامع يبدو قديماً تسطع فيه أضواء كهربائية وتفوح منه رائحة البخور، ظللت أحدق في الوجوه على غير انطباع وعلى غير هدف في حين انهمك الحاج أمين في التسبيح بيديه وهو يغمض عينيه تارة ويفتحهما تارة وقد ارتسمت على ملامحه علامات الرضا والخشوع فلم أجد مفراً من أن أبتسم وأنا أردد في نفسي ذات العبارة التي تنم عن إعجابي به:

• يا لهذا العجوز.

أحسست بكف توضع على ظهري برفق التفتُ إلى الخلف لأجد وجه جمال باسماً وهو يشير برأسه نحو باب الجامع وكرر ذات الشيء مع الحاج أمين لنغادر الجامع .

دلفنا إلى ذات الغرفة في منزل الحاج سالم الذي كان بانتظارنا وبيده مسبحة طويلة ظل يداعب حباتها وهو يتمتم بخفوت وعيناه تحدقان في الشاشة الصغيرة الموضوعة أمامه على الأرض رفع الحاج سالم نظره إلينا وعاد يكرر عبارات الترحاب ثم التقط الجرس وقرعه عدة قرعات ليظهر جمال وهو يحمل صحناً عريضاً وضعه على الأرض ثم غاب وأتى بصحن أخر وأخر أشار إلينا الحاج سالم وهو ينهض قائلاً بود:

• هيا إلى الطعام بسم اللّه....تفضلا.

جلسنا حول المائدة ما لبث الحاج سالم أن هتف :

• جمال .... جمال.

دلف جمال إلى الغرفة صامتاً فأشار إليه الحاج سالم بالجلوس فجلس وبدا يتناول طعامه بصمت،

الحق يقال ، هذا أول طعام حقيقي أتذوقه منذ عده أشهر مرت على وكأنها عصور ، كدت خلالها أن أنسى مذاق التوابل الحارة والخضروات المطبوخة

بإختصار شديد كانت المائدة عبارة عن وليمة حقيقية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، وفي ظل هذه الظروف القاسية كانت تُعتبر معجزة حقيقية ليس من السهل إيجادها أو الحصول عليها.

تساءل الحاج أمين قائلاً :

• ما أخبار الجبهة يا حاج سالم وإلى أين وصلتم؟

رمى الحاج سالم بنظرة سريعة نحوى ذات مغزى رد عليها الحاج أمين بهز رأسه كإشارة تطمين، أدركت من ذلك أن الحاج سالم يخشى شيئاً ما وبالتحديد يخشى أن أكون مندساً أو مدفوعاً للإيقاع به، لكن وعلى أية حال ما الذي قد يقوله هذا الكهل وسيكون مختلفاً عما نسمعه في وسائل الإعلام التي يحدق هو في إحداها طوال الوقت لذا فلم أشعر بالإمتعاض من تصرفه هذا.

أجاب الحاج سالم على تساؤل الحاج أمين وهو يلتقط لقمة ويحشرها في فمه:

• الجبهة مازالت مشتعلة كما تعرفون ومازال الفدائيين يقومون بعمليات نوعيه في العمق ويشنون حرب عصابات تستهدف المواقع العسكرية وخطوط الإمداد ومراكز السيطرة والتحكم ويبدو أن قبضة العسكر قد بدأت تضعف في أكثر من موقع مما أدى إلى انفراط عقد التحالفات القبلية المضادة للثورة.

التقط الحاج سالم كأس ماء أفرغه في جوفه ثم تابع قائلاً :

• اليوم القنوات الإخبارية تُعلن سقوط مدينتي (خليان) و (كشران) في أيدي الثوار وهذا يعنى أن قوات المجلس العسكري قد تم محاصرتها تماماً في منطقة البساتين وقُطعت عنها خطوط الإمداد وليس أمامها سوى الاستسلام أو الانتحار.

صمت الحاج سالم لحظات ثم أضاف وعلى شفتيه ابتسامة غامضة :

• وبحسب هذه القنوات فقد لجأت هذه القوات إلى قصف محطة المياه التي تزود منطقة البساتين وما جاورها بالمياه وقَصفَت أبراج الكهرباء لتعيش المنطقة في وضع مأساوي في ظل انعدام الماء والكهرباء وكأنها تعاقب المدنيين المقيمين هناك عقاباً جماعياً نكاية بالثوار .

انتبهت إلى عبارة الحاج سالم الأخيرة واستغربت فسألته:

• عفواً ألم تقل أن القوات الحكومية محاصرة في منطقة البساتين وليس أمامها سوى الاستسلام أو الانتحار؟ فكيف باللّه عليك ستقوم هذه القوات بقصف المحطة التي تزودها وتزود المنطقة التي تحميها بالمياه وتدمر أبراج الكهرباء لتزيد بذلك

من صعوبة وحرج موقفها فكيف ذلك؟
ضحك الحاج سالم وهو يقول مقاوماً نوبة سعال :
• ناقل الكُفر ليس بكافر....، أنا نقلت لكم ما تناقلته القنوات الإخبارية ولي رأي خاص أحتفظ به لنفسي، وبالتأكيد فليس كل ماتنقله هذه القنوات صحيحاً فهي في الأول والأخير تعتمد في إستسقاء أخبارها على شبكة من المراسلين يتوزعون في شتى مناطق التوتر في العالم وبالتأكيد فلكل مراسل رؤية وموقف من أي حدث يؤثران بشكل أو بآخر على طبيعة ومصداقية الخبر المُذاع ، تماماً كما لكل منا رؤيته الخاصة للحدث ورأيه الخاص فيما يحدث ، وهناك بالتأكيد جانب مظلم وغامض من الحدث يجهله الكثيرون وقله من يستطيعون النفاذ اليه .
أشار الحاج أمين بيده موافقاً وهو يقول :
• أنت على حق فمثلاً قصف محطة مياة... تفجير أنبوب نفط...عبوة ناسفة في سوق شعبي ...تدمير مقار الأجهزة الأمنية والخدمية...تدمير السجون... اختطاف سياسي أو دبلوماسي أو أستاذ جامعي، لتُلقى اللائمة في الأخير على الحكومة المركزية كونها هي المستفيد من هكذا أعمال تخريبية وتلقي الحكومة باللائمة على عاتق الثوار باعتبار أنهم من يتصدرون الأعمال المسلحة الموجهة ضد الحكومة ، ويتم غض الطرف عمداً أو سهواً عن صاحب المصلحة الحقيقية في هكذا أعمال مع أن الجميع يعرف يقيناً أن هناك طرفاً ثالثاً في المعادلة ويعرفون من يكون وما هي دوافعه وما هي المكاسب التي سيجنيها من هكذا أعمال، الأمر يحتاج إلى التأني فالطرف الثالث حاضر وبقوة ويستفيد استفادة كاملة من الوضع الراهن .
تجهم الحاج سالم وهو يقول بنبرة تحمل الأسى:
• معك حق فيما تقوله فإفراغ المدن من مؤسسات الدولة وضع البلاد في مهب الريح ، وبوجود هذا الكم الكبير والمتناقض من الفصائل المسلحة تحول الأمر إلى فوضى عارمة لا تحكمها قوانين أو حتى أعراف ،أعتقد أن مسار الثورة انحرف تماماً عما كنا نرسمه له وتحولت من وعد جميل بالحرية وبالتغيير المدني الايجابي إلى فوضى عارمة تشظت فيها بنية المجتمع إلى شظايا متناحرة تستهلك كل القيم والموروثات الأخلاقية في معاركها التي لا تنتهي ،ضاربة بعرض الحائط بأي خطوط حمراء قد تعترض طريقها.
زفر الحاج سالم زفرة أسى طويلة وتابع قائلا :

• الأخبار كثيرة والمآسي أكثر من أن تحصى لكني في الآونة الأخيرة فضلت ترك بندقيتي واعتزلت كل ما يجري وعكفت في منزلي أصارع مرضي وأتابع ما يحدث من بعيد.
أنهى الحاج سالم عبارته وهو يُرسل نظرات متألمة نحو صور معلقة على الجدار لم المحها من قبل عرفت يقيناً أنهم أبناء الحاج سالم.
قال الحاج سالم بصوت واهن مبحوح وهو يلوح بكفه بوهن بعلامة الرفض :
• لقد فقدت ثلاثة من أبنائي في هذه الحرب والرابع ها هو ذا أمامكم أصيب في حلقة ليفقد القدرة على الكلام، لو كنت أعلم أن الأمور ستؤول إلى هذا المآل لما سلكت هذا الطريق منذ البداية ولكنت رضيت بما قسم اللّه.
بادره الحاج أمين بقوله :
• وحد اللّه يا رجل هذا قضاء اللّه يمضيه وقت يشاء وكيف يشاء بغض النظر عن الظروف.
رد الحاج سالم بذات الصوت الواهن واجهش بالبكاء و توقف عن تناول طعامه:
• لا إله إلا اللّه ... لا إله إلا اللّه، هل تعلم يا حاج أمين انه من السهل أن يتحدث أياً كان عن التضحية بالنفس وبالمال والولد تحت أي راية ،لكن فعلياً تظل هذه مجرد شعارات صبيانية جوفاء تفتقر إلى المصداقية والواقعية ، فإنك إن فقدت إبناً أو أباً أو أخاً أو حتى صديقاً فتلك مصيبة ما بعدها مصيبة ، إن أصابتك فإنك بالتأكيد لا تريدها أن تصيب أحداً آخر ،تخيل أن تظل طوال حياتك تحمل سكيناً مغروزاً في عمق قلبك ، تتلوى تحت وقع ألمه ليل نهار ،تُحرم من لذة النوم وإن غفوت لحظات تطاردك خيالات شتى لمن قضى ، ذلك هو الحزن وذلك هو الأسى الحقيقي إن لم تعرفه، وأنا على ثقة بأن أولئك الغوغائية والمراهقين السياسيين والقطط السمان الذين يبدون في تصريحاتهم الإعلامية استعدادهم بالتضحية بمليون أو أكثر من أبناء الشعب من أجل الخلاص، لن يوافقوا أبداً أن يكون أحداً من أبنائهم أو أحداً من أقاربهم ضمن هذه الملايين التي يتقربون بها لشيطان شهواتهم ورغباتهم المريضة ، ولأننا أدركنا بأن أولئك السراق يحاولون أن يستخدموننا كمطية للوصول إلى أهدافهم فقد عزمنا على تغيير إستراتجيتنا في العمل بشكل كلي وفي الأيام القادمة بإذن اللّه ستسمعون مايسركم.
ختم الحاج سالم عباراته وهو يزفر زفرة طويلة فسألته وكأني أحاول أن أخرجه من حالته هذه :

• أين قضى أبناؤك ؟
أجاب وهو يمسح فمه بمنديل قماشي كبير وهو ينظر نظرة طويلة شاردة وكأنه يستعيد ما حدث:
• كانوا على متن سيارة دمرها لغم أرضي على مشارف نفوسة، إنا للّه وإنا إليه راجعون حسبي اللّه ونعم الوكيل .
لم يكد الحاج سالم يتم عبارته حتى تعالى صوت نداء من الخارج ينادي بالحاج سالم، نهض جمال بخطوات سريعة نحو النافذة وأطل منها وهو يشير بيده وعاد إلى مجلسه خلف مائدة الطعام لنسمع بعد ذلك صوت خطوات ترتقي سلم المنزل وصوت جهوري يردد مقطعاً من نشيد صوفي فقال الحاج سالم مبتسماً :
• هذا صهري إدريس.
• دلف إدريس إلى الغرفة وكان على ما يبدو في منتصف العقد الرابع من العمر طويل القامة رياضي البنية صارم الملامح تغطي عينه اليسرى ضمادة بيضاء وبعض القطن وقد ندت على سطحها بقعة حمراء طرية لعلها دم أو محلولاً مطهراً لست متأكداً بالضبط.
ألقى إدريس السلام وجلس إلى جوار جمال يتناول طعامه وهو يكرر عبارات الترحاب بنا، ما لاحظته أيضاً أن إدريس فقد إصبعين من أصابع يده اليمنى، لكنه مع ذلك يتعامل مع الملعقة بشكل جيد للغاية.
توجه الحاج سالم بالحديث نحو إدريس قائلاً :
• لقد تأخرت في القدوم ولم يكن هناك مجال للإنتظار ، هذا الحاج أمين صديقي أظن أنك تذكره وهذا ضيفه نزلا اليوم ضيوفاً علينا ونزلت معهما البركة بإذن اللّه.
أجاب إدريس وهو يبتلع طعامه قائلاً:
• أهلاً وسهلاً ...أهلا وسهلاً بكما... حلت علينا البركة،كيف لا أذكر الحاج أمين إنه رجل المفاجآت وصنف نادر من الرجال صعب أن يتكرر في هذا الزمن.
حقيقة شعرت بالارتياح لهذا الإطراء الذي سمعته في حق الحاج أمين رفيق دربي... يبدو أن لهذا الرجل مكانة عظيمة في نفوس كل من قابله ، فرغنا من طعامنا ثم إتجهنا لشرب الشاي في حين تفرغ الحاج سالم امام شاشته الصغيرة لنرجيلته وظل ينفث دخانها طوال الوقت ليعبق جو الغرفة برائحة التبغ

الصرف.
سمعنا عدة نداءات على الحاج سالم وفي كل مرة يطل جمال من النافذة ليشير بيده بالصعود لتتوالى الوجوه الجديدة الوافدة إلى مجلس الحاج سالم.
كنت أعتقد أن الحاج سالم مجرد رجل عادي أجبره المرض وأجبرته الأحزان على إلقاء السلاح والاعتكاف في منزله بجوار شاشته الصغيرة ونرجيلته، إلا أن المكانة التي يحظى بها هنا ليست عادية، كان على ما يبدو بمثابة المرجع والأب الروحي للفدائيين كما يسميهم، عرفت ذلك يقيناً من ما إستخلصته من العبارات المتناثرة هنا وهناك في هذه الغرفة ومن ذلك الإجلال والإحترام الكبير الذي يبدو في تصرفات كل من يزوره وكذا من وجوه الزوار القاسية وأجسادهم المحملة بالعتاد والذخائر.
كان معظمهم يأتي وهو يخفي ملامحه بشال عربي أو بعصابة من قماش أسود ليغادروا بذات السرعة التي يجيئون بها بعد أن يتسلموا أوراقاً مطوية بعناية يناولهم إياها الحاج سالم من تحت فرشة مجلسه و دون أن يتبادل الجميع أي حديث شفوي.
شخص واحد ظل ولم يغادر مع الجموع ظل إلى جوارنا جالساً وهو يتبادل حديثاً خافتاً مع إدريس وكان يدخن بشراهة وعلى وجهه علامات التعب والإرهاق واضحتان أشد الوضوح، شد هذا الرجل إنتباهي كثيراً عندما تحدث فقد كان واسع الإطلاع على ما يبدو أو ربما نال حظاً جيداً من التعليم هذا ما استطعت أن أستنتجه من إختياره الدقيق لعباراته وحديثة المتماسك عن الحرية والحرب والقيم الأنسانية والحزن ومواضيع شتى تنم عن سعة أفقه وإطلاعه.
كان هذا الشخص يدعى (عيسى)كما عرفنا به الحاج سالم بعد إنصرافه وعيسي هذا بشاله الفلسطيني الذي لا يغادر رأسه أو عاتقه أبداً وبتلك الندبات التي تحتل جزءاً واسعاً من وجهه لتزيد ملامحه قسوة ورهبة جعلته إجمالاً أشبه بقائد ميداني مخضرم لا يشق له غبار.
ولعيسى هذا حكاية حكاها لنا الحاج سالم بعد أن سألته عن سبب ذلك الشرود الذي أراه لا يفارق وجه عيسى ولماذا لا يحمل سلاحاً كبقية المقاتلين هنا مع انه يبدو مقاتلاً من الطراز الأول أجابني الحاج سالم وهو يمسح لحيته الرمادية عدة مرات قائلاً بوهن :
• عيسى هذا هو مفتاح كل الحكاية وبدايتها ...فهو أب لأربع بنات وولد واحد

هو في الأصل من أبناء المخيم الفلسطيني المقام هنا في نفوسة ... إنخرط في العمل المسلح ضمن أحد التنظيمات الفلسطينية المسلحة أبان حقبة الكفاح المسلح، فأكسبه هذا خبرة واسعة في مجال العمل العسكري وبحكم عمله سافر كثيراً لأداء مهام أوكلت إليه وبزوال عصر الكفاح المسلح وفي ظل إتفاقيات السلام التي أخمدت نيران المقاومة وقتها وأخمدت كذلك كل أمل في قلوب أبناء المخيمات في الشتات بالعودة الى موطنهم، ومع إنهيار كل آماله في العودة إلى وطنه عاد عيسى إلى بلادنا وإلى ذات المخيم الذي إنطلق منه ومع انه يحمل شهادات عليا في العلوم العسكرية إضافة الى خبرة واسعة في العمل الميداني،عاد عيسى وقد إتخذ قراراً بطي صفحة الماضي بحلوه ومره ليبدأ حياة جديدة بعيداً عن البندقية ورائحة البارود فعمل كسباك ودهان ومن ثم تزوج وأصبحت له أسرة وأطفال ،مرت السنوات وبدا أن عيسى قد تكيف مع الوضع الجديد وبدأ يعيش هنا وكأنه في وطنه ليطوي خلفه كل صفحات الماضي بنجاح كبير، وفي بداية الأحداث الحالية ظل شأنه شأن كل سكان المخيم الفلسطيني محايداً ولم يتحيز لأي طرف لا يعنيه شيء من ما يحدث ، إلا إنه وكما يقال أن الأبناء يؤخذون بجريرة الآباء أحياناً ، فقد حدث العكس تماماً هذه المرة ، فذات يوم أعتقل إبنه جهاد إبن العشرين ربيعاً على خلفية مشاركته في إحدى المظاهرات كما أعلن في وقتها، ومن يومها إختفى جهاد تماماً ، كل من كانوا حوله أفادوا بأن جهاد إعتقله الأمن الداخلي واقتادوه في جيب عسكري مع بعض المعتقلين إلى جهة غير معلومة،بحث عيسى عن إبنه طويلاً في أقسام الشرطة في السجون في المستشفيات في الأمن الداخلي ولكن دون جدوى ،مرت الأيام تلو الأيام وعجلة البحث والسؤال لم تتوقف وفي صباح ذات يوم وجدت جثته على عتبة منزله وقد نُكل بها أشد تنكيل، جُن جنون عيسى لفقدانه إبنه الوحيد دون سبب واضح ودون أن يقترف أي ذنب،عاش عيسى أياماً سوداء عصيبة أجبرته على حمل السلاح وهذا ما أرادته العديد من الإطراف الخفية التي كانت ترغب في الإستفادة من عيسى وخبراته وكسر حالة الجمود والحياد التي وضع نفسه فيها وبدأ عيسى أول خطواته في مشوار الإنتقام من قتلة إبنه، فكان أول من شكل تنظيماً مسلحا حقيقياً في نفوسة وقام بعمليات خطف وقتل للعناصر الأمنية وقاد عمليات تدمير لمقار الأمن والجيش والأمن الداخلي والسجون، وبدا عيسى وكأنه يقود إعصاراً مدمراً في نفوسة، فلم تجد أجهزة الدولة الأمنية إلا

أن تنسحب من هذه المدينة كلياً ،ثم تقصفها بعنف ،لتترك أمرها بعد ذلك لعيسى وتنظيمه المسلح، وللعلم فقد شكل تنظيم عيسى المسلح نقطة جذب لأهالي نفوسة ،الذين ضاقوا ذرعاً من ممارسات الأجهزة الأمنية ومن الفساد المستشري فيها ،و انضم اليه أيضاً من لهم ثارات مع قيادات الدولة والأجهزة الأمنية ،لتتسع بذلك رقعة التنظيم ويزداد عدد أفراده بشكل كبير ،لكن الخطأ الذي وقع فيه عيسى، أنه لم يُدرك أو لم يضع في حسبانه أنه كلما إتسع التنظيم وزاد عدد أفراده كان من الصعوبة السيطرة عليه، وكذا التحكم في سلوك أفراده فيصبح من السهل إختراقه ، ومرت الأيام وبدا أن التنظيم المسلح إستطاع أن يمد نفوذه إلى العمق والى مناطق كانت تعد أمنه في نظر الأجهزة الامنية، إلا أن الطرف الأخر وأقصد به الأجهزة الأمنية كان يعمل بنفس الجدية التي يعمل بها عيسى ، وذلك في سبيل الإيقاع بقائد التنظيم وتفكيك شبكاته ، التي غدت أشبه بإخطبوط كبير يطوق المدن ويبتلعها الواحدة تلو الأخرى ثم يفرغها من الوجود الحقيقي للدولة ومؤسساتها ، وجاء اليوم المنشود وتم الإيقاع بعيسى من قبل عناصر الأمن الداخلي الذين إنخرطوا ظاهرياً في صفوف التنظيم - وأنا أشك في ذلك- فأنا أعتقد أن الأطراف الخفية التي أرغمت عيسى على حمل البندقية كانت فقط تنتظر اللحظة المناسبة لقطف ثمار العمليات التي يقودها عيسى، وبعد أن أفرغ تنظيم عيسى المدن الهامة من مؤسسات الدولة وأجهزتها الأمنية وقدمها دون قصد على طبق من ذهب لتلك الأطراف ، كانت مهمته بذلك قد انتهت في نظرهم ويجب التخلص منه بطريقة تُحمل الطرف الأخر المسؤولية وفي نفس الوقت تضمن إستمرار دوران رحى الحرب، فتم الوشاية به ليتم الإيقاع به من قبل الأمن الداخلي ، فأشعل نبأ الإعتقال هذا موجه عنف مضادة من قبل التنظيم ، طالت كل ماله علاقة بالحكومة المركزية ،ولم يستثنى من ذلك المشاريع الخدمية والمؤسسات الحكومية وبدأت الخسائر تتصاعد بوتيرة واحدة مع العنف ،وعلى عكس ما كانت تأمله الأجهزة الأمنية من أن التنظيم سيتلاشي تلقائياً بعد الإيقاع بعيسى ، إلا أن الأيام أثبتت عكس ذلك تماماً، فقد بدا أن إعتقال عيسى كان كالحجر الذي وقع على عش الدبابير فقد بدأ التنظيم يتحول بصورة تدريجية الى مجموعات استقلت عن بعضها البعض وتعمل بشكل مستقل على قاعدة من الو لاءات والتحالفات الشخصية ،لتشكل كل مجموعة فيما بعد تنظيماً مستقلاً بذاته له رؤيته وطريقته في العمل ، وتحولت طريقة

عمل بعض المجموعات إلى ما يشبه عمل مجموعات الجريمة المنظمة ، فراحت تجمع الإتاوات وتفرض الضرائب، وتتحكم في منافذ التهريب والتجارة المشروعة و الغير مشروعة لكل ما قد يخطر ببالك ، ومن هذه النقطة بدا التغير في مسار الحدث ليتحول الأمر إلى فوضى عارمة، بعض المتنفذين في الحكومة وبعض أصحاب النفوذ الذين رغبوا في ركوب الموجة وحماية مصالحهم وكذا الإستفادة من الوضع الحالي قدر الإمكان، إستطاعوا شراء ولاء بعض قادة تلك الجماعات المسلحة ليكونوا ميلشيا ثورية خاصة بهم ، إستخدموها كبطاقة للدخول إلى حظيرة الثورة ، لتضمن لهم بذلك مكاناً في العهد الجديد المرتقب، وتضمن لهم أيضاً الاستفادة من الوضع الراهن قدر الإمكان ، لتقوية نفوذهم على الساحة إن لم يُكتب النجاح للثورة الوليدة .

و مع ارتفاع وتيرة أعمال العنف التي تشنها الجماعات المسلحة أُطلق سراح عيسى بعد شهور طويلة من الاعتقال على أمل أن يُسهم إطلاق سراحه في إخماد نار العنف أو على الأقل التخفيف من حدته.

إلا أن عيسى الذي خرج من المعتقل لم يكن ذات الشخص الذي دخله قبل أشهر... كان واهناً ...شارداً... يده اليمنى ترتعش بشكل ملحوظ ،يبدو أنه تعرض لتعذيب شديد في المعتقل، ولا أقصد تعذيب بدني فقط.... بل صارحني بأنه تعرض أيضاً لتعذيب نفسي يقهر أشد الرجال بأساً وصلابة ومن ذلك أنه تعرض عدة مرات لعملية إعدام وهمي في السجن، أعتقد أن هذه العمليات جعلته يعيش في دوامة من أحلام اليقظة وتحت وطأة طوفان من الكوابيس يعكر صفو منامه ،و ربما أثرت هذه العمليات على نمط تصرفاته كلياً وعلى اتزانه العاطفي وعلاقته بمن حوله .

نقلت بصري نحو الحاج أمين متسائلاً :

• إعدام وهمي؟.... الإعدام...إعدام كيف له أن يكون وهمياً؟

أجاب الحاج أمين وقد بدا التأثر بالغاً على وجهه وهو يجيب:

• أسلوب جديد في التعذيب يوازي عملية الإيهام بالغرق ،تم إستنساخه محلياً من نسخته الأصلية والتي إبتكرتها أجهزة الأمن الأمريكية على ما أظن، يؤخذ المعتقل المتهم في قضايا الإرهاب أو من يشك في إنتمائه لتنظيم مسلح ، لتُجرى معه التحقيقات بشكل طبيعي أحياناً وعنيف أحيان أخرى ، وإن لم يلمس المحققون أي تجاوب من قبل المتهم فإنه يحال إلى محاكمة عسكرية ،

تمر إجراءات المحاكمة بصورة طبيعة يرافقها عروض بالترغيب والترهيب ، أضف إلى ذلك إلزام المعتقل بتناول أصناف غريبة من الأدوية خلال فترة إعتقاله ، تحت إشراف طبيب المعتقل - أعتقد أن لهذه الأدوية أثراً سلبياً كبيراً على الجهاز العصبي للمتهم - ، وإن لم تُجدي تلك العروض تصدر المحكمة حكمها بالإعدام على المتهم رمياً بالرصاص ، وتسير الإجراءات كما يجب ، وينقل المتهم إلى زنزانة الإعدام ويحضر قاض عسكري وطاقم الإدعاء ويتلى الحكم على المتهم بحضور حشد من المهتمين ، ثم يغطى رأس المتهم ويقاد إلى جوار أحد الجدران في قاعة الإعدام مكبل اليدين والساقين ، وفى تلك الثواني القليلة يقدم له عرض أخير بالاعتراف أو التعاون لإعادة التحقيقات وإلغاء الحكم ، فإن لم تُجدِ هذه المحاولة الأخيرة يُعطى الضابط المشرف التعليمات للجنود بصوت جهوري بإطلاق النار على الرأس والصدر ، ويصدر الأمر للجنود بالاستعداد لإطلاق النار ، فتُسمع صوت البنادق وهي تلقم بالذخائر و يبدأ العد التنازلي بصوت جهوري... ويدوى صوت إطلاق النار.... لكن لا يوجد رصاص، هذه هي عملية الإعدام الوهمي، و لك أن تتخيل شعور المتهم وهو يقف معصوب العينين ومكبل اليدين والقدمين وقد أيقن بالموت تماماً ، وكل ما ينتظره هو إختراق الرصاصات لجسده و إنتهاء حياته على ذلك النحو المؤلم،وأعتقد أن الأدوية التي يُجبر المعتقل على تناولها طوال فترة اعتقاله إضافة إلى ذلك الضغط النفسي الرهيب الذي يتعرض له المتهم منذ أن يتم إعتقاله واثناء فترة المحاكمة ، أضف إلى ذلك تلك اللحظات الأخيرة التي يسيطر فيها اليأس و الإستسلام على كيان المتهم كل هذه عوامل تكسر عزيمة أشد الناس عناداً وبأساً ، وربما يُجن البعض وإن نجا المتهم من كل ذلك ، فالضرر الأكيد الذي يمكن أن يصيب المعتقل هو إختلال في التوازن النفسي والعقلي للبعض فيطلق سراحهم بعد أن أمن المحققون ومن خلفهم الأجهزة الأمنية أن لا خطر من إنسان يعاني من إضطراب نفسي وعقلي.

بعد هذا المشوار الطويل من الحديث ، نهض الحاج سالم وهو يتثاءب حاملاً مسبحته الطويلة قائلاً بوهن:

• تصبحون على خير .... حان وقت نومي....إن رغبتما في النوم فجمال سوف يرشدكما إلى غرفة الضيوف.

غادر الغرفة وتبعه إدريس فيما نهضنا نحن ليقودنا جمال نحو غرفة مجاورة وإتجه

نحو باب آخر مقابل، فتحه وهو يشير نحو الداخل، فعرفت أنه يريد أن يخبرنا بأن هذا الحمام.
دخلنا إلى الغرفة وإستلقيت على السرير فيما ظل الحاج أمين يطالع بعض الصور المعلقة على الجدران، ظللت أحدق في السقف لحظات قبل أن يخبو صوت المولد الكهربائي ويعم الظلام والصمت .
سمعت خطوات الحاج أمين على أرضية الغرفة المفروشة بغطاء بلاستيكي وهو يقول :
• أين أنت؟
أجبته بفتور:
• هنا .... بجوار الجدار.
سمعته يتحسس بكفه على الجدار وهو يتمتم بشيء غامض ، تحسس السرير المعدني ثم ارتمى عليه بعنف لتصدر مفاصله صريراً معدنياً مزعجاً ، بدت وكأنها صرخة احتجاج أطلقها السرير إحتجاجاً على ذلك الثقل المفاجئ الذي هوى عليه على حين غـرة.
التفتُ نحو الحاج أمين الذي استقر على سريره وأنا أحاول أن أتبين ملامحه بصعوبة وبادرته قائلاً:
• لماذا لم تخبو جذوة العنف بعد الإفراج عن عيسى ألم يكن إعتقاله هو السبب الرئيسي لارتفاع وتيرة أعمال العنف؟
أجاب الحاج أمين بصوت خافت قائلاً :
• من الأفضل أن تخفض صوتك وأنت تتحدث في هكذا أمور، إنما وكما علمت سابقاً أن هناك بعض الأطراف الخفية هى التي دفعت بالأمور لتؤول هذا المآل، كشفت هذه الأطراف عن نواياها وحقيقة توجهها بعد إعتقال عيسى ،ولذلك فقد إستبشر الجميع بخبر قرب الإفراج عن عيسى وغدا هذا الخبر أشبه بنهاية حقبة وبداية حقبة جديدة وما إن أفرج عنه فعلياً حتى تفاجأت كل الأوساط بأن الوضع لم يتغير أبداً وإنما إستمرت بنفس الوتيرة السابقة ، وربما أكثر.
بدا لي الأمر غريباً بعد ما عرفته عن عيسى و إلتفاف الجميع حوله فسألته :
• ولماذا؟؟ ما الذي تغير؟؟ مع أنه من المفترض أن يتحول الإفراج عن عيسى إلى نصر معنوي وفعلي كبير للتنظيم المسلح الذي يقوده من حيث كونه أرغم الأجهزة الأمنية على الافراج عن قائده بالقوة ، ليحقق بذلك إعترافاً

ضمنياً من الأجهزة الأمنية ومن ورائها الحكومة المركزية بالقوة التي يتمتع بها التنظيم، وربما هذا سيشجع التنظيم على دخول المعترك السياسي لتحقيق مطالب عجز السلاح عن تحقيقها ، ومن ثم التخلي عن السلاح كأداة للمطالبة بالحقوق والحريات ، هذا إن غضضنا الطرف عن كل ما سبق واعتبرنا بأن هناك زواجاً مابين الثورة وهذا التنظيم .

أجاب الحاج أمين :

• بالتأكيد هذا صحيح ، ولكن هناك عده أسباب كانت وراء كل ما يحدث ، أهمها أن عيسى الخارج من المعتقل كان ضعيفاً واهناً ، و لم تعد لديه الرغبة في الإستمرار في نشاطه السابق ، إضافة إلى أن أغلب القيادات البارزة في تنظيمه تركوا تنظيمه وشكلوا تنظيمات أخرى ، تحول حملها للسلاح إلى وظيفة تدر الكثير من المال ، أصبحت تلك التنظيمات هي الأذرع المسلحة لذلك اللوبي الذي طفى على السطح فجأة ، والذي يضم في جنباته تجاراً كبار وشخصيات قبلية وضباطاً سابقين ولفيف من رجال الأعمال ، معظمهم كانوا من بطانة النظام ، وغدا هذا اللوبي عبر أذرعه المسلحة يدير ويمتص خيرات البلاد كاملة حتى في تلك المناطق التى مازالت تحت سيطرة الحكومة المركزية،مستغلا الوضع الراهن ومسخراً كل إمكاناته لاستمراره على هذا النحو الذي يتيح لهم بيئة مناسبة للعمل .

ساد الصمت لحظات قبل أن يصدر سرير الحاج أمين صريراً طويلاً يوحي بتململه فتابع الحاج أمين قائلاً :

• لك أن تتخيل الرجل العادي من عامة الشعب ممن كان ضمن تنظيم عيسى وقد تدفقت الأموال إلى جيبه بطريقة لم يكن يحلم بها أبداً ، بل انه أصبح في مقدوره أن يجني في شهر مالم يكن يستطع أن يجنيه في عقد كامل من الزمن من العمل المضني،ثم يأتي أياً كان ليقول له عيسى غادر السجن وسوف يعود التنظيم إلى سيرته الأولى، هل تعتقد أنه سيكف عن جمع الأموال ويغادر حياه البذخ ليعيش في شظف العيش مطارداً في الشعاب والوديان والجبال ملتحقاً بعيسى؟

أجبته بتلقائية:

• بالتأكيد لا، فمن عاش حياة قاسية ثم إنتقل إلى حياة الترف والبذخ من الصعب أن يغادرها إلى حياة الشظف مرة أخرى، بل أعتقد أنه سيصبح أكثر

ضراوة في الدفاع عن موقعه ومركزه الحالى.
أجاب الحاج أمين قائلاً :
• هذا صحيح، ولذلك تشكلت المجموعات أو التنظيمات المسلحة في غالبيتها على هذا النسق وهذه القاعدة وفى قمة هذه التنظيمات بالطبع أحد السراق ذوي العيار الثقيل أظن أنك فهمت لماذا لم يغير الإفراج عن عيسى شيئاً على أرض الواقع.
سألته في حيرة وقد جلست على سريري وأنا أحاول أن أخفض صوتي قدر الإمكان:
• وما هو موقف الحاج سالم من كل هذا ؟ أرى أنه رجل يحظى بمكانه هامة هنا لكني أشعر أن حديثه عن ترك السلاح وعن الحرب ومجرياتها تصب في واد وتصرفاته وزيارة هذا الكم من المسلحين له تصب في واد أخر.
ساد الصمت لحظات قبل أن يعتدل الحاج أمين ليجلس على حافة سريره قائلا بصوت خافت للغاية:
• سأقول لك شيئاً يا فتى قد يودي بحياتك يوماً ما سواء قلته أو أخفيته.
قاطعته قائلاً:
• أقسم باللّه أن أدفع حياتي ثمناً للحفاظ على ما ستقوله.
كعادته صمت الحاج أمين لحظات طويلة إعتقدت خلالها أنه نام مما جعلني أحدق في الظلام لأجده ما زال جالساً على حافة سريره وقد أطرق بعينيه نحو الأرض فجلست إلى جواره فبادرني قائلاً دون أن يلتفت نحوي:
• لا أدري في أي مأزق وضعت نفسي ولكن هي مشيئة اللّه ليكن ما يكون، الحاج سالم كان قائدًا بارزاً في تنظيم عيسى وأعتقد أنه في منزلة الأب الروحي له، ظل يقود العمليات السابقة بمعيه عيسى ثم تولى مسئولية قيادة التنظيم بعد اعتقال عيسى ، بل انه قاد تلك العمليات التي أرغمت الأجهزة الأمنية على الإفراج عن عيسى خلال فترة الاعتقال،وعلى الرغم من الحظوة والمكانة الرفيعة التي يحظى بها الحاج سالم ، إلا أن العديد من أعضاء التنظيم ومن قادة شبكاته ممن جذبهم بريق المال واستطاعت بعض الشخصيات المتنفذة شرائهم تنكروا له تماماً ، و بدءوا يعيثون في الأرض فساداً ليكون هدفهم الوحيد هو جمع المال ضاربين بعرض الحائط بأية إعتبارات يمكن أن تتخيلها،أدرك الحاج سالم اللعبة وفهم بأن هناك من استغل الجميع بل ومازال يستغل الوضع الراهن لمصلحته، فجمع حوله

من تبقى من تنظيم عيسى المخلصين وآخرين من ذوي النزاهة الذين إلتحقوا فيما بعد بالتنظيم ،وبدأ بشن عمليات مضادة ضد قادة تلك العصابات المسلحة سواء كانت محلية أو قيادات ما خلف الستار، أعتقد أن الحاج سالم يحاول بهذا أن يكفر عما إقترفه بحق هذا الوطن وبحق هذا الشعب عبر تخليصه من تلك الحشرات الطفيلية التي تمتص دمه وتنخر في بدنه.
عدت إلى سريري وعشرات الصور والأفكار تدور في رأسي لم أكن أتوقع أن الصورة بهذه القتامة فسألت الحاج أمين :
• وهل يعلم قادة تلك المجموعات المسلحة عن نوايا وتحركات الحاج سالم وتنظيمه؟
أجاب الحاج أمين وهو يعود للإستلقاء على سريره:
• أنا على يقين أنهم يعلمون، وللعلم فقد جرت محاولات عديدة للتخلص منه لكن الأمر الأخير في هذه الحالات هو للّه، فعندما تحين ساعتك فإنك لن تستطيع أن تأخرها أو تقدمها ولو ثانية واحدة .
بادرته متسائلاً:
• وماذا عن الثورة المدنية أين هي؟
ضحك الحاج أمين ضحكة ساخرة خافتة وهو يجيب بسخرية:-
• عن أي ثورة تتحدث يارجل؟...الثورة التي تعني أكلت أبنائها ثم إندثرت لتترك البلاد لقطعان الجرذان تنخر في كل شيء وتدمر كل شيء جميل بدعوى الثورة، كانت إعتصامات مدنية سلمية تحولت بطريقة غامضة وعلى أيدي أولئك السراق إلى إشتباكات مسلحة تتبناها شخصيات متنفذة و تنظيمات مسلحة ثم إلى طوفان من الفوضى والتخريب تكتسح أرجاء البلاد وأنت تعرف بقية القصة.
ضحك الحاج أمين ضحكة حاول السيطرة عليها وهو يقول متابعاً:
شاهدت ذات يوم أحد الإشتباكات بين هذه الجماعات والقوات الحكومية المضحك المبكي في الأمر أن الطرفين كانوا يكبرون بإسم اللّه ويتضرعون إلى اللّه وهم يطلقون النار وقذائف الأر بي جي على بعضهم البعض من بيت لبيت ومن شارع لشارع ،تماماً على النحو الذي سبق وان شاهدناه معاً،مما يجعلك تقف حائراً وتتساءل من منهم يلعب دور المسلم ومن يلعب دور الكافر؟ يبدو أن الأمر إختلط عليهم أيضاً فلم يعد في مقدورهم معرفة أين هو موقعهم؟ ولماذا يقتلون بعضهم البعض ولماذا يدمرون هذه المنشئآت والأحياء على هذه

النحو المقيت ، فالجماعات المسلحة تحتمي بالمنازل، ويستخدمونها كمتاريس وثكنات ونقاط هجوم ،القوات الحكومية بدورها ترد على مصادر النيران بعنف منقطع النظير وتبرر ذلك بالدفاع عن النفس وعن المدنيين الاسرى فى نظرها بيد هذه الجماعات ، وبين حجري الرحى يقبع المغلوبون على امرهم ، لا يملكون سوى الفرار او الموت ولاخيار ثالث متاح امامهم .

ظللت شارداً لحظات أفكر في كلمات الحاج أمين وربما في عيسي وفى الأيام الأخيرة التي مضت بي ، طيف واسع من الصور والأحداث يمر أمام ذهني.

تعالى شخير الحاج أمين لينبئ عن نومه فيما ظللت أحدق في السقف وأنا أصيخ لصوت طلقات نارية تأتي من بعيد ربما ليست طلقات نارية وقد تكون أسلحة ثقيلة تُطلق في أماكن بعيدة وأغمضت عيناي.....

فتحت عيناي على صوت ضجيج عال وصوت زجاج و أثاث يتحطم و اقدام ثقيلة تعبر المنزل جيئاً وذهاباً، اعتدلت في جلستي مذعورا و انا انقل بصري إلى سرير الحاج امين الخالي، فى تلك اللحظة دلف الى الغرفة بضعة رجال أشداء مسلحين، دارت اضواء مصابيحهم اليدوية في المكان قبل أن تستقر على وجهي ثم اتجه الجميع نحوي بعصبية ورائحة الشر تفوح منهم على نحو لا يمكن تجاهله، تسمرت على سريري لم استطع الحركة ، ذوت الكلمات في حلقي ، اقترب منى احدهم مركزا ضوء مصباحه اليدوي على وجهي، وبحركة مباغتة هوى احدهم على وجهي بكعب بندقيته بعنف ، فسقطت على الأرض ،تقدم الآخرون وجروني من ذرعاي على الأرض ثم ألقي بي في الخارج، ثم تم قيدي إلى عمود خلفي وأنا مكبل القدمين ومكمم الفم على نحو مزعج ، وعلى الرغم من أنه تم وضع كيس من القماش على رأسي ، فقد بدا شبه منفذ للضوء استطعت من خلاله أن أتبين ما يحدث ، كانت جموع المسلحين تتوافد على المكان كان الهلع والخوف يسيطر على كل كياني، ارتفعت البنادق نحوي، حاولت مرارا أن اصرخ وأن أستجدى ولكن الكلمات كانت تختنق في حلقي ، ولم تفلح كل محاولاتي في التملص من قيودي، ارتفع لغط المسلحين لحظات ثم خبى فجأة ، سمعت البنادق تلقم بالذخيرة، إشتدت وتيرة محاولاتي للصراخ وللتملص من قيودي،سمعت صوتاً يأمر بإطلاق النار، ثم بصوت إطلاق نار كثيف ، أغمضت عيناي بقوة ...سمعت أزيز الرصاص يعبر بجوار أذني و أحسست بالرصاص يصطدم بصدري على نحو مؤلم تقلصت على إثر ذلك كل عضلة في جسدي وكأنها تحاول صد ذلك السيل

المنهمر من الرصاص، أحسست بآلام شتى تعتصر صدري وبكل ما أوتيت من قوة حاولت أن أفتح فمي لأستنشق الهواء .... ولكنني لم أستطع.... إنني أختنق.... إنني أختنق بعض الهواء.

فتحت عيناي لأجد نفسي جالساً على سريري وقد تملكني الرعب تماماً،كان الحاج أمين يقف إلى جواري بعد أن أيقظه صراخي فتحسست صدري بيد مرتعشة وكأني أبحث عن أثر لأي جرح وقد غمر جسدي العرق على نحو مفزع بادرني الحاج أمين مطمئناً وهو يقول:

• لا بأس يا ولدي لقد كان كابوساً.... لا بأس عليك.

التقط كأس ماء وناولني إياه أفرغته في جوفي وعلى صدري بعجل وأنا مازلت أرتجف بشده كعصفور صغير أصابه البلل ، ناولته الكأس وأنا أشكره بإستحياء ، وفيما إتجه الحاج أمين نحو الباب لطمأنة شخص ما يقف على الباب جذبه صوت صراخي أظنه جمال ظللت أسترجع تفاصيل ذلك الكابوس الرهيب وأنا مازلت أتحسس صدري وحلقي لقد كان كابوساً رهيباً بالفعل ، عدت للإستلقاء على سريري مرة أخرى وأنا أتحسس معدتي بكفي ... يبدو أن القرحة تحركت،فقد بدأت اشعر بألم خافت في معدتي تجاهلته وأغمضت عيناي.

صحوت على صوت أذان الفجر، وبينما نحن متجهون نحو الجامع برفقة جمال تناهى إلى مسامعي صوت سعال الحاج سالم من الغرفة المجاورة وهو يتلو آيات من الذكر الحكيم بصوت دافئ وجميل، فرغنا من صلاة الصبح ثم عدنا إلى منزل الحاج سالم لتناول الفطور بمعية الحاج سالم الذي كان جالساً في ذات مجلسه المعتاد أمام شاشتة الصغيرة يعاقر نرجيلتة .

خرجنا بعد ذلك أنا والحاج أمين لجولة سريعة في المدينة فلم يكن لدينا برنامج واضح في نفوسة ولم أكن أعلم كم يمكننا أن نبقى هنا ،لكنى أعتقد أن جولة سريعة في المدينة بعد ذلك الكم الهائل من المعلومات الذي عرفته الليلة الماضية ستجعلني أنظر لهذه المدينة كضحية لعربدة أولئك الغوغائية.

عبرنا الأزقة الضيقة والشوارع الخلفية لهذه المدينة ونحن نتصفح الوجوه والمباني و الأرصفة، بدا لي الهواء مشحوناً بشحنة كهربائية تبعث الضيق في النفس ، بل بدا لي كل شيء يبدو شاحباً مصفراً على نحو غريب ، ربما هي يد الموت التي بسطت نفوذها على كل شيء هنا لتتركه مصفراً تذروه الرياح.

زحام غريب وغير متجانس ،مقاتلون بأسلحتهم يجوبون الشوارع ،وأطفال هزيلون

يبيعون ملابس مستخدمة وأحذية ومستلزمات شخصية كالساعات وشفرات الحلاقة وصوراً تذكارية مختلفة ربما هي لمن قضوا في المعارك ، لم يجد ذويهم خياراً سوى التخلص منها ربما تحت وطأة الجوع والفاقة وربما هي رغبة في طي صفحة حزينة من حياتهم على هذا النحو المؤلم ، او ربما هي غنيمة غنمها هؤلاء الباعة من احد الاحياء المدمرة ولم يجدوا حرجاً من عرضها للبيع على هذا النحو المزر ،كبار السن بعضهم يبيع العطور المركزة على المارة وآخرون يتسولون ،وعلى الأرصفة معاقون يتسولون بعاهاتهم إلى جوار مساحات تكدست عليها كميات كبيرة من الأثاث المنزلي المتهالك يُعرض للبيع بشكل فوضوى ، يجعله يبدو اقرب الى القمامة وابعد مايكون عن كونه اثاثاً ، وقف أحدهم حاملاً بيده مكبر صوت معلناً بصوت حاد ومزعج عن رغبته في بيع قطع الأثاث بسعر جيد ، بالتأكيد هذا الأثاث لمن فروا من المدينة تاركين خلفهم جُل متاعهم لتتخاطفه أيدي السراق لينتهي به المطاف معروضاً على أحد الأرصفة ، بائعات الخبز والحليب المغشوش يقلبن بضاعتهن النادرة رغبة في جذب زبائن ، عربات بيع الموز موجودة وتزاحم عربات بيع الذخائر والأحزمة الجلدية ،عربات الأطعمة الشعبية وقف حولها بعض المارة وهم يتناولون طعامهم غيرأبهين بما يدور حولهم ، أصناف شتى من المشاهد التي لم تستطع ذاكرتي الإلمام و الإحاطة بها.

بدت في هذه الأنحاء معظم النوافذ والواجهات الزجاجية وقد سدت بأكياس الرمل والبعض تم حمايتها بشريط لاصق على سطحها الزجاجي بشكل حرف (X) ، الزحام في المخابز لايطاق ، يمتد هذا الزحام نحو أجزاء السوق الأخرى ، يبدو الحال اجمالاً وكأننا في مرفأ مدينة تعج بالنازحين وبجرحى الحرب القادمين والمغادريين ،وعلى الرغم من ذلك فأنا على قناعة تامة بأن لا شيء متوفر في هذه المدينة وسهل المنال مثل الفوضى والموت والسلاح.

ظللنا نعبر ونشد الخطى عبر الشوارع الطافحة بالحطام والمياه الأسنة ،ذات المشهد يتكرر في كل حي ندخله إلا أنني أحسست أن هذه المدينة التى نخرها الخراب مقسمة إلى مربعات بين المجموعات المسلحة هذا ماتوحيه تلك المتاريس المتقابلة في عدة نقاط ، وعلى الرغم من أن التنقل مسموح به ظاهرياً بين هذه المربعات إلا أنني شعرت بتلك الخطوات الخفية تتبعنا، وكثيرا ما إصطدمنا بنظرات متفحصة وغير إعتيادية لمن مررنا بقربهم ،و يبدو وكأن

الجميع يعرف بأننا من خارج هذه المدينة وربما يدفعني الجنون لأن أقول وكأنهم يعرفون أنى أخفي شيئاً ما في صدري.
لا أدرى هل أنا في بلدي أم أني في بلد آخر أفر برفقة هذا العجوز من جحيم إلى جحيم أقتنص أي فرصة لكي أعيش يوم إضافي ودون أن أفكر في الغد.
رحت اتصفح الوجوه الذابلة والأجساد النحيلة المغطاة بأسمال بالية تحاكي الواقع المعاش وعادت كلمات ذلك الكهل سائق العربة تدوي فى رأسي وهو يقول :
• أن تموت الآن خير من أن تموت بعد لحظات ، فالحياة غدت ركضاً عقيماً ومؤلماً، ليصبح البقاء على قيد الحياه أكثر إيلاما من نزعات الموت .....
روحك في أحسن الأحوال لن تقضي بين أصابع ملك الموت سوى لحظات .....
لكن الحياة هنا مشوار طويل من الألم المتصاعد لن تجد عنه بديلاً مريحاً سوى الموت .
وصلنا إلي مشارف الحي الذي يقع به منزل الحاج سالم ، بدا من بعيد وقد احتشد أمامه عددُ من المسلحين وسيارات تحمل رشاشات ثقيلة ، لم يكن هذا الحشد او السيارات موجوداً حين غادرنا المنزل،لكنه ليس غريباً على رجل في مكانة الحاج سالم .
ظللنا نقترب بخطي وئيدة من منزل الحاج سالم، وليس لدي أي فكرة عما ننوي فعله بقية هذا اليوم وربما بقية الأيام المقبلة ، فقد شعرت بضيق شديد يعتريني ويحملني على التفكير بمغادرة هذه المدينة ، التي بدت لي كوكرٍ للدبابير وبالتأكيد ليست أي دبابير، ربما سألجأ إلي مغادرة هذه البلاد، حتماً هذا العجوز يعرف طريقة ما لعبور الحدود، أو على الأقل يستطيع أن يوصلني إلى أحد أولئك السماسرة الذين بمقدورهم صنع المستحيل ، لم يعد هناك أي جدوى من الإستمرار في العيش هنا ، فمعنى الحياة أفرغ من محتواه الطبيعي ليتحول إلى متتالية خرافية من الفرار العقيم،متتالية خرافية من الدمار والقتل،تتصاعد بإيقاع عالي الوتيرة،لا سبيل للتخلص منها أو على الأقل تجنب الوقوع فيها.
لم يعد موضوعا في حساب الناس التخلص من هذا الشر ومسبباته بقدر ما غدى عيش يوم إضافي أمنية يناضل الجميع للحصول عليها اياً كان الثمن والطريقة، فرؤية الشمس في اشراقة يوم جديد تطل على وجوه و أفئدة هؤلاء القوم ترف لا يمكن لأي كان أن يدركه في هذه البقعة من الأرض ،لكن..... و أسفاه فقد أصبح الجميع كأحجار الدمينو..... سقطت أولاها قبل حين .... ولابد ان تتبعها

بقية الأحجار كحتمية لا مفر منها طال الزمان أو قصر .
كانت عيناي مازالتا مسمرتان على منزل الحاج سالم الذي ظل يقترب ويقترب على إيقاع خطواتنا، وفجأة لمحت وميضاً أعقبه خروج كرات كبيرة من النار من نوافذ بيت الحاج سالم ، أعقبها صوت إنفجار شديد يصم الآذان ، اقتلعتني موجة الإنفجار من مكاني لتلقي بي بعنف أرضاً عدة أمتار إلى الخلف ، راح جسدي يتلوى على إيقاع الألم المتوحش ، وببطء جنائزى مخيف راحت سحابة الغبار تخف كثافتها ، لأشاهد من بعيد كتلة كبيرة من النيران تلتهم بقايا منزل الحاج سالم و السيارات المتوقفة امامه ،ظلت قطع الإسمنت والحجارة تتساقط حولنا بشكل كثيف ، دخلت الى المكان جموع من المسلحين راحت تطلق النار بكثافة على كل ما يتحرك ، وراحت تقتحم المنازل المجاورة لمنزل الحاج سالم بعد أن أجهزت بالرصاص والسلاح الأبيض على من نجا من المسلحين الذين كانوا يقفون أمام منزل الحاج سالم و بوحشية منقطعة النظير ، تعيد إلى الأذهان معارك (التوتسي و الهوتو) وربما تفوقها وحشية وجنوناً.
حقيقة لا أدري ما يحدث هنا أو بالأحرى لم أستوعب ما حدث إستجمعت قواي ونهضت بوهن وأنا أشعر بدوار عنيف يكاد يشل حركتي وبطنين مزعج في أذناي حجب كل الأصوات .
التفتُ نحو الحاج أمين الذي كان ملقاً على بعد أمتار مني وهو يسعل وقد بدت بقعة كبيرة من الدماء على صدره إتجهت نحوه بخطى متعثرة لأساعده على النهوض،ظللنا نحدق لثوان في منزل الحاج سالم ونحن غير مصدقين ما حدث وما يحدث ، إلتفُت نحو الحاج أمين الذي كانت شفتاه تتحركان بحديث ما وقد بدت على ملامحه علامات التعب ،أشرت له بكفاى نحو أذناي بأني لا أسمع، فمد يمسح جبيني بكفه ليرني بقعة من الدماء في باطن كفه يبدو أنها سالت من أذناي وأخرى بدأت تسيل من أنفي أزلتها بكم قميصي، إستدار الحاج أمين نحو الخلف وكأنه لمح أو سمع شيئاً ما ، لم أكد أرفع نظري إلى ذات النقطة التي إلتفت إليها حتى هوى شيء ثقيل على وجهي، سقطتُ على إثر ذلك على الأرض ونافورة من سائل دافئ لزج تغمر وجهي وتكاد تحبس أنفاسي ، لمحت الحاج أمين ممدداً إلى جواري وعيناه جاحظتان فبدا وكأنه يحدق في الأرض بألم ،استجمعت قواي وحاولت أن أمد يدي نحوه ، لكن محاولتي باءت بالفشل فلم تنبو سوى سبابتي بوهن ، أحدهم جرني بإحدى قدماي ليتم بعد ذلك إلقائي بعنف في

مؤخرة عربةٍ عسكرية ، أحسست بجسد الحاج أمين يلقى إلى جواري ثم شاهدت وجهه جامداً و عيناه مازالتا مفتوحتان وهو يحدق نحوى بجمود ، بضع أقدام ترتدي أحذية عسكرية مكسوة بالغبار ، صعدت إلى مؤخرة العربة بعضها داس على أجسادنا والبعض الأخر وقف الى جوارنا شكلت تلك الصور أخر مشهد خال من الأصوات وقعت عليه عيناي ذلك اليوم .....

ليسود الظلام بعد ذلك.

فتحت عيناي ببطء كان الألم يطوق رأسي، حاولت الحركة فلم أستطع كُنت اقف مقيد اليدين والقدمين بشكل محكم إلى جدار في ساحة كبيرة وخالية تبدو أشبه بملعب كرة قدم بأرض ترابية يحيط به سور عال أحيط بسياج من الأسلاك الشائكة، كانت أصوت الرصاص و الانفجارات تملاء سماء المدينة على نحو مريع للغاية ، ليبدو الأمر وكأن رحى حرب حقيقية بكل ما تحمله الكلمة من معنى تدور في المدينة .

نقلت بصري نحو الحاج أمين فشاهدته إلى جواري فاقد الوعي و جسده المدمى مشدود بقوة إلى الجدار وفجأة تأوه الحاج أمين ، وبجبين إصطبغ بالدم والتراب رفع رأسه وهو يقول بوهن:-

• أين أنا؟

نقلت بصري نحوه وأنا أشعر بطبقة جافة تكسو تقاسيم وجهي لتجعل حركة عضلاته أكثر صعوبة.

قلت له وأنا أحدق في الساحة الفارغة في حيرة :

• لا أدري أين نحن.... إنما يبدو أننا تعرضنا للخطف أو الاعتقال.

رد الحاج أمين قائلاً بصوت متعب :

• يبدو أن خطباً ما أصاب الحاج سالم، كُنت أعرف أن هذا اليوم سيأتي فأولئك المجرمون لن يتركوه يمضى قُدماً فيما بدأ فيه، وبالتأكيد فلكل شيء نهاية ويبدو أن نهاية المشوار قد دنت منا نحن أيضاً.

لم يكد ينهي عبارته حتى تقدم نحونا بخطى مسرعة من إحدى البوابات البعيدة ثلاثة من المسلحين بزي عسكري يضعون على وجوهم أقنعة سوداء تخفي هوياتهم ، اجتاز المسلحون الساحة بسرعة ليقفوا على مسافة منا حاملين أسلحتهم وأصابعهم على الزناد ظللت أحدق فيهم للحظات قبل أن أسألهم بصوت حاولت أن يبدو قوياً و متماسكاً:

• من أنتم ؟ وماذا تريدون منا؟
كررت السؤال مراراً لكنى لم أتلقى أي رد، مرت دقائق من الصمت ظل فيها المسلحون يحدقون نحونا وهم يتبادلون نظرات قلقة وحديثاً عصبياً غامضاً ، بدا وكأنهم ينتظرون شيئاً ما، كسر هذا الصمت صوت طائرة تحلق في الأجواء على علو مرتفع وعلى اثر ذلك تعالت في الأنحاء نيران المضادات الأرضية التي طغت أصواتها على أصوات الاشتباكات الأخرى الدائرة في الأنحاء .
التفتُ نحو الحاج أمين الذي شد قامته على نحو ملحوظ وبدا وكأنه لم يصبه أي سوء وقال بحزم:
• ليكن ما يريده هؤلاء ما يكون، سوف نواجهه بشجاعة ،لسنا أحسن حالاً من كل أبناء الوطن،استعد و أنهض ليس لدينا ما نخسره أمام هؤلاء ففي هذه اللحظات لا داعي لأن تعرف سبب حياتك أو مماتك فمعرفتك وجهلك لن تشكلان أي فارق.
على الرغم من أني أدركت أن الحاج أمين أيقن بأنها النهاية ، إلا أن كلماته كانت قوية ومنطقية فماذا يعنى موتنا؟ عشرات الآلاف الضحايا وسكان المقابر زادت أعدادهم بموت اثنين ؟!! وماذا تعنى حياتنا؟ زيادة أثنين في مليارات من البشر الأحياء ؟!!....يا لهذا الفارق الغبي بين الحياة والموت..... إذن فما يريده اللّه يكون .
رفعت رأسي وأنا أشد قامتي قائلاً وعلى وجهي ابتسامة ساخرة:
• لك اللّه أيها العجوز.... ما زلت تبهرني بأفكارك حتى في اللحظات الأخيرة .
أنهيت عبارتي على وقع صوت جيب عسكري يعبر الساحة بسرعة مثيراً خلفه عاصفة من الغبار والحصى ، ترجل منه بحركة رشيقة رجل مسلح يرتدي زيا عسكرياً تزين أكتافه رتبه عسكرية رفيعة يخفى ملامح وجهه بقناع اسود وقد بدت إحدى عينيه مغطاة بضماد طبي ندت الدماء من على سطحه ، تقدم بخطى مسرعة وهو يرسل نظراته نحونا بعين واحدة بدت حركتها عصبية وغير اعتيادية ، همس في أذن كل مسلح بشيء ما و انصرف على عجل بذات الجيب الذي جاء به، رفع المسلحون فوهات بنادقهم نحونا بعد أن تراجعوا خطوات إلى الخلف ليشكلوا صفاً واحداً، أيقنت بأن وقت الرحيل قد حان إبتسمت وأنا أتمتم بالشهادتين ونقلت بصري نحو الحاج أمين الذي أغمض عينيه وراح يتمتم لحظات امتزج خلالها صوت الأذن الأتي من بعيد بصوت الرصاص ، ما لبث أن

ابتسم وهو يلتفت نحوي بابتسامة صافية وهو يقول:-
• من أنت يا بُني لم تُعرف عن نفسك؟
ضللت أحدق لحظات في عينيه الواسعتين وقد بدا أنهما تحملان في أعماقهما الخضراء طوفاناً من البسمات يكاد ينبثق منهما و على وقع سؤاله الغير متوقع وجدت نفسي أنفجر ضاحكاً من أعماق قلبي، وأجبته وصوت ضحكي يتعالى ويمتزج بصوت الحاج أمين الذي انفجر ضاحكاً بصوت عال لتتردد في الأنحاء ضحكته...
• اسمي .... أمين يا حاج أمين....
ولم أتم عبارتي حتى دوى في المكان صوت سيل من الطلقات النارية.
فلم أعرف إن سمع الحاج أمين كلماتي أم لا....
وساد الظلام....
.....

الفاتح من حزيران 2011

للتواصل مع المؤلف:

AMEL_BADER@YAHOO.COM
AMEL_BADER@HOTMAIL.COM